




المشروع القومي للترجمة

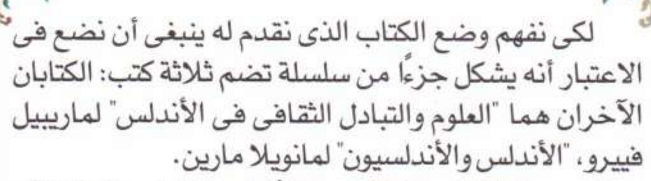
# شتات أهل الأندلس

## {المهاجرون الأندلسيون}

تأليف: مرثيديس غارثيا أرينال
ترجمة: محمد فكرى عبد السميع
مراجعة وتقديم: جمال عبد الرحمن

1085





لكى نفهم وضع الكتاب الذى نقدم له ينبغى أن نضع فى الاعتبار أنه يشكل جزءًا من سلسلة تضم ثلاثة كتب: الكتابان الآخران هما "العلوم والتبادل الثقافى فى الأندلس" لماريبيل فييرو، "الأندلس والأندلسيون" لمانويلا مارين.

يقدم هذا الكتاب رؤية أخرى للأندلس؛ إذ ترى المؤلفة أن الحديث عن تقدم الأندلس وتعايش أبنائه فى سلام لا يعدو كونه "أسطورة" من وحى خيال المؤلفين. ليس صحيحًا - من وجهة نظر المؤلفة - أن المسيحيين واليهود كانوا راضين بالعيش تحت الحكم الإسلامى "المتسامح"، بل ترى أن أبناء الديانتين تعرضوا لتمييز، إن لم يكن اضطهادًا. وتهدف ترجمته إلى تعرف القارئ العربى على وجهة نظر أخرى فى موضوع نراه من المسلمات بينما يدور الجدل بشأنه فى إسبانيا.

الكتاب - رغم صغر حجمه - يقدم معلومات أساسية لمن يريد البدء فى دراسة تاريخ الإسلام فى الأندلس بعد سقوط غرناطة، أما الذى يريد التعمق فى الدراسة فنحيله إلى كتب أخرى للمؤلفة ولغيرها من الباحثين صدرت ترجماتها عن المشروع القومى للترجمة.





# شتات أهل الأندلس

## ( المهاجرون الأندلسيون )

المشروع القومى للترجمة

إشراف: جابر عصفور

- العدد: ١٠٨٥
- شتات أهل الأندلس (المهاجرون الأندلسيون)
- مرثيديس غارثيا أرينال
- محمود فكرى
- جمال عبد الرحمن
- الطبعة الأولى ٢٠٠٦

هذه ترجمة كتاب:

**La diáspora de los andalusíes**

**Por: Mercedes García-Arenal**



شارع الجبلاية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة ت: ٧٣٥٢٣٩٦ فاكس: ٧٣٥٨٠٨٤

EL Gabalaya st. Opera House, El Gezira, Cairo
TEL: 7352396 Fax: 7358084

المشروع القومى للترجمة

# شـتات أهل الأندلس

# ( المهاجرون الأندلسيون )

تأليف : مرثيديس غارثيا أرينـال

ترجمة : محمـــود فكـرى عبد السـميع

مراجعة وتقديم: جمال عبد الرحمن




٢٠٠٦

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

أرينال مرثيديس غارثيا
شتات أهل الأندلس أو المهاجرون الأندلسيون
تأليف : مرثيديس غارثيا أرينال ، ترجمة محمود فكرى عبد السميع ،
مراجعة وتقديم : جمال عبد الرحمن
ط ١ – القاهرة : المجلس الأعلى للثقافة ، ٢٠٠٦
٢٣٢ ص ، ٢٠ سم (المشروع القومى للترجمة) ،
١ – الأندلس – تاريخ ٩٥٣,٠٧١
أ – فكرى ، محمود (مترجم)

رقم الإيداع ٢٤٨٢٧ / ٢٠٠٦
الترقيم الدولى : I.S.B.N - 977- 437-142-1

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

---

## المحتويات


تقديم المراجع ........................ 7

تصدير الناشر الإسبانى ........................ 17

مقدمة ........................ 19

١- المستعربون ........................ 33

مملكة أستورياس وليون ........................ 34

طليطلة ........................ 46

المغرب ........................ 47

٢- اليهود ........................ 51

قشتالة ........................ 52

أراغون ........................ 61

٣- المدجنون ........................ 69

مملكة قشتالة ........................ 74

غرناطة .................................. 103
مملكة أراغون .............................. 107
فالنسيا .................................... 111
٤- الموريسكيون ............................ 115
تعليم الإنجيل والتنصير ...................... 123
القمع والطرد ............................... 132
مقاومة طمس الهوية ......................... 137
٥- الموريسكيون بعد الطرد ................... 149
المغرب .................................... 157
الجزائر .................................... 168
تونس ...................................... 177
تعليق على المراجع ........................... 185
قائمة المراجع ............................... 217

## تقديم المراجع

لدولة الأندلس مكانة عظيمة فى نفوس أبناء الحضارة العربية الإسلامية ، فهى ترمز إلى عصر ازدهار حضارتنا وتفوقها ، وإلى موقعنا بوصفنا أصحاب فضل على أوروبا وغيرها، أو- على الأقل- بوصفنا مساهمين بشكل أو بآخر فى تقدم الإنسانية.

البعض يتحدث عن "الفردوس المفقود" ، والبعض الآخر يتذكر ضياع الأندلس كلما سقطت قلعة عربية. يتحـدث المؤرخون العرب -وكثير من الأوروبيين- عن دولة الأندلس بوصفها نموذجًا للتقدم والرقى والتعايش بين مواطنين يدينون بأديان مختلفة ، كل ذلك فى انسجام تام.

لكن الكتاب الذى بين أيدينا يقدم رؤيـة أخـرى للأنـدلس ، إذ ترى المؤلفة أن الحديث عن تقدم الأندلس وتعايش أبنائه فى سلام لا يعدو كونه "أسطورة" من وحى خيال المؤلفين. ليس صحيحًا –من وجهة نظر المؤلفة- أن المسيحيين واليهود كانوا راضين بالعيش تحت الحكم الإسلامى "المتسامح" ، بل ترى أن أبناء الديانتين تعرضوا لتمييز ، إن لم يكن اضطهادًا.

لكى نفهم وضع الكتاب الذى نقدم له ينبغى أن نضع فى الاعتبار أنه يشكل جزءًا من سلسلة تضم ثلاثة كتب : الكتابان الآخران هما "العلوم والتبادل الثقافى فى الأندلس" لماريبيل فييرو، و"الأندلس والأندلسيون" لمانويلا مارين . وقد نبهت المؤلفة إلى أن هذا الكتاب لا ينبغى أن يقرأ بمعزل عن الكتابين الآخرين (هل نطمع فى أن تتسع إصدارات المجلس الأعلى للثقافة لنشر الكتابين الآخرين؟)

وإلى أن يرى المجلس رأيه فى ترجمة الكتابين نتحدث بكثير من الإيجاز عنهما . كتاب "العلوم والتبادل الثقافى فى الأندلس" يتحدث عن العلوم الأندلسية فى إطار أندلسى بحت ، أى بمعزل عن أوروبا ، ويخلص إلى أن الأندلسيين لم يطوروا علومهم بهدف تصديرها إلى أوروبا ، بل كان اهتمامهم منصبًا على أنفسهم أولا ثم على المسلمين فى الشرق ، أما كتاب "الأندلس والأندلسيون" فيتحدث عن تاريخ الفترة الأندلسية من حيث التطورات الفكرية والاقتصادية والاجتماعية . تحدد المؤلفة صفة "الأندلسى" وعلاقة أهل الأندلس بالمسلمين فى حوض البحر المتوسط ، ثم تحدد "الأساطير" التى نشأت حول الأندلس (إذن فإن الحديث عن "أساطير أندلسية" لا يقتصر على باحث واحد ، بل نرى أنه يمثل اتجاهًا ، وإن كان أنصاره قلة حتى الآن).

هناك أمر آخر ينبغى أن نضعه فى اعتبارنا عند قراءة هذا الكتاب. فى عالمنا العربى لا يرى الناس فى الأندلس إلا الصورة الوردية ، ولعل كتابًا مثل هذا الذى نقدم له يصدم تصورات الكثيرين. أما القارئ الإسبانى فهو مهيأ لقراءته ، ذلك لأنه قرأ فى كتابات بعض المؤلفين وجهة نظر أخرى تتحدث عن الأندلس كمجرد "أسطورة" أراد المؤلفون بناءها. تأمل مثلاً كتابات المستعرب الإسبانى سيمونيت فى القرن التاسع عشر(١) ، وتأمل وجهة نظر سانشيث ألبورنوث فى مناظراته مع أميريكو كاسترو ، ثم تأمل – أخيرًا– كتابًا يوحى عنوانه بأن ما هو "أندلسى" يتعارض مع ما هو "إسبانى". هذا الكتاب الأخير يقول ببساطة إنه لم يعد هناك تراث أندلسى فى إسبانيا ، ويبنى رأيه على أساس أن مسلمى غرناطة – وهم حملة التراث الأندلسى الإسلامى– قد تم تهجيرهم من الجنوب وإحلال مسيحيى الشمال محلهم، وعليه فإن عادات أهل غرناطة اليوم لا تمت للمسلمين بصلة ، وليست سوى عادات أهل الشمال.

نستطيع أن نؤكد أن هذا الطرح لا يصمد كثيرًا أمام نتائج الأبحاث التى أجراها مؤلفون إسبان. انظر مثلاً خوليو كارو باروخا الذى خصص فصلاً كاملاً للحديث عن موريسكيى مملكة غرناطة الذين عادوا إلى موطنهم الأصلى بعد طردهم منه(٢). لكننى أريد أن

أوضح أن موضوع الأندلس ليس من المسلَّمات فى أوروبا، بل هناك جدل بشأنه.

على أن الباحثين الأوروبيين الذين يقولون بوجود اضطهاد للمسيحيين واليهود فى الأندلس يبنون أحكامهم على أساس أن المجتمع الأوروبى الحديث يقبل بوجود غير المسيحيين ولا يمارس تمييزًا ضدهم. ولا يملك المرء هنا إلا أن يقول إن الواقع غير ذلك ، وكلنا يعلم معاناة المسلمين فى أوروبا عندما يريدون بناء مسجد (انظر على سبيل المثال قصة مشروع مسجد إشبيلية ، فقد تعطل البناء لأن أهل الحى "لا يريدون إرهابيين بينهم")، أما عن قصص التمييز ضد الأوروبى الذى يعتنق الإسلام – خاصة إذا كان من أصحاب المناصب العليا – فحدِّث ولا حرج.

عمومًا فمن المهم أن نطالع وجهة النظر الأخرى إذا أردنا أن يكون تقييمنا لأمر ما موضوعيا.

يتناول الكتاب أيضًا العناصر السكانية فى شبه جزيرة إيبيريا إبان الحكم الإسلامى فى الأندلس ولعل من المناسب أن نبدأ بتوضيح معنى كل اسم يطلقه المتخصصون على كل عنصر سكانى. المستعرَب **mozárabe** هو المسيحى الذى يقيم فى مملكة يحكمها

المسلمون.(أما المستعرِب arabista فهو الباحث المشتغل بالحضارة العربية الإسلامية)

والمدجن mudéjar هو المسلم الذى يقيم فى مملكة يحكمها المسيحيون. أما الموريسكى فهو المسلم الذى لم يغادر إسبانيا بعد سقوط غرناطة الإسلامية وظل يمارس شعائر الإسلام سرا بعد أن أجبرته السلطات المسيحية على التنصر.

يتحدث الكتاب عن المستعربين mozárabes ودورهم فى نقل المعارف إلى الممالك المسيحية فى الشمال. يذكر أن المستعربين أقاموا فى المغرب ، حين أبعدهم المرابطون إليه بعد أن ساندوا ألفونسو الأول ملك أراغون المسيحى) .

يتحدث عن اليهود فيقول إنهم استقبلوا بارتياح وصول الفاتحين المسلمين أملاً فى تحسن أوضاعهم، وإنهم سرعان ما انخرطوا فى الثقافة العربية. تشير المؤلفة إلى الدور الذى لعبه اليهود فى نقل المعارف العربية إلى أوروبا من خلال مدرسة المترجمين فى طليطلة.

يتحدث الكتاب أيضًا عن تحويل اليهود قسريًا إلى الإسلام فى بداية عصر الموحدين ، ولا يسوق أدلة موثقة على ذلك ، ويقول إن

المصادر العربية أغفلت هذا الأمر. ونرى أن على مؤرخينا مناقشة هذا الموضوع والإسهام فى توضيحه.

يتضح من عرض وضع الأقليتين المسلمة واليهودية فى ممالك المسيحيين بالشمال أنه لم يكن هناك تسامح دينى على الإطلاق ، ويشهد الكتاب نفسه أن المسيحيين واليهود فى الممالك المسلمة كانوا يتمتعون بوضع ممتاز، وإن لم يكن مساويًا للمسلمين.

تكتسب هذه الشهادة أهمية خاصة إذا وضعنا فى الاعتبار الموقف الذى تبنته المؤلفة فى البداية، على أننا لا نستطيع أن نغفل – كذلك – هذا التقييم الموضوعى الذى نراه هنا.

يتحدث الكتاب عن المدجنين (فى قشتالة وغرناطة وأراغون وفالنسيا) وعن الموريسكيين (يتعرض لمحاولات تنصيرهم ولاضطهادهم وللسعى إلى طمس هويتهم) وتخصص المؤلفة فصلاً للحديث عن الموريسكيين بعد طردهم من إسبانيا ( فى المغرب والجزائر وتونس ).

تتحدث المؤلفة عن موقف كل من غالميس دى فوينتيس وماركيث بيانوبيا[٣] من الموريسكيين. تقول إن بيانوبيا يرى أن المؤرخين اعتمدوا على الكتابات الرسمية وهى– فى رأيه– "مصادر مسمومة" ووصلوا إلى نتيجة مفادها أن المجتمع الإسبانى كان يكره الموريسكيين، وتنقل المؤلفة عن بيانوبيا قوله: لو أن المؤرخين

الإسبان اطلعوا على الأدب الألخميادو الذى كتبه الموريسكيون لعلموا أن اندماج أولئك الموريسكيين فى مجتمع الأغلبية كان ممكنًا.

تعرض المؤلفة أيضًا رأى غالميس دى فوينتيس ، وهو يرى أن الأدب الألخميادو يؤكد بما لا يدع مجالاً للشك أن الموريسكيين كانوا مسلمين قلبًا وقالبًا، وأنه – بناء على ذلك– لم يكن اندماجهم فى مجتمع الأغلبية ممكنًا.

المؤلفة تؤيد رأى غالميس دى فوينتيس ، وترى أن المجتمع متعدد الثقافات لم يوجد فى إسبانيا مطلقًا.

ونحن بدورنا نرى أن مفهوم "التعايش" عند غالبية المؤرخين والباحثين الإسبان معناه تخلى الأقلية المسلمة عن هويتها الدينية.

منذ سنوات أجريت دراسة عن مخطوطة كتبها بالإسبانية موريسكى لجأ إلى تونس [٤] ، ورأيت أن الموريسكى – حتى وهو خارج وطنه الإسبانى– كان إسبانيًا شديد التمسك بوطنه. لكنه كان أكثر تمسكًا بالإسلام، وقد ضحى من أجل إسلامه بالكثير. ما يهمنى أن أبرزه هنا هو أن الموريسكى حاول الاندماج فى مجتمع الأغلبية ، فغير ملابسه وارتدى ملابس المسيحيين ، ثم تخلى فى حياته العامة – طوعًا أو كرهًا – عن لغته العربية وتحدث لغة أهل قشتالة. فعل

الموريسكى كل ذلك – وغيره كثير – حتى يندمج فى مجتمع الأغلبية. لكنه لم يتخل مطلقًا عن الإسلام.

لم يخطئ ماركيث بيانوبيا – فى تصورى – فى قراءته لمضمون الأدب الألخميادو ، إذ كان يتحدث عن مجتمع إسبانى يتعايش فيه المسيحيون والمسلمون واليهود. أما الذين ربطوا بين الهوية الإسبانية والعقيدة الكاثوليكية فهم الذين تبنوا نظرية الموريسكى غير القابل للاندماج فى مجتمع الأغلبية.

وبعد ، فإن الهدف من ترجمة هذا الكتاب أن يتعرف القارئ العربى على وجهة نظر أخرى فى موضوع نراه نحن من المسلمات بينما يدور الجدل بشأنه فى إسبانيا.

الكتاب، على صغر حجمه، يقدم معلومات أساسية لمن يريد البدء فى دراسة تاريخ الإسلام فى الأندلس بعد سقوط غرناطة. أما القارئ الذى يريد التعمق فى الدراسة فإننا نحيله إلى كتب أخرى للمؤلفة ولغيرها من الباحثين وصدرت ترجماتها عن المشروع القومى للترجمة.

يبقى أن نقدم جزيل شكرنا للزميلة مرثيديس غارثيا أرينال على تعاونها – هذا هو كتابها الرابع الذى ننشره فى القاهرة – وللمجلس الأعلى للثقافة على دعمه المستمر لنشر كتب تلقى كثيرًا

من الضوء على تاريخ الأندلس فى مرحلة ازدهاره وبعد سقوط دولة الإسلام فى غرناطة.

والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات

جمال عبد الرحمن

## الهوامش

(١) انظر كتاب "المستعربون الإسبان فى القرن التاسع عشر" تأليف مانويلا مانثاناريس، ترجمة وتقديم جمال عبد الرحمن ، المجلس الأعلى للثقافة ، القاهرة ، ٢٠٠٣

(٢) انظر كتابه "مسلمو مملكة غرناطة بعد عام ١٤٩٢" ترجمة وتقديم جمال عبد الرحمن ، المجلس الأعلى للثقافة ، القاهرة ، ٢٠٠٤

(٣) انظر كتابه "القضية الموريسكية من وجهة نظر أخرى" ترجمة عائشة سويلم ، مراجعة وتقديم جمال عبد الرحمن ، المجلس الأعلى للثقافة ، القاهرة ، ٢٠٠٥

(٤) انظر د. جمال عبد الرحمن "ثقافة موريسكى: قراءة فى المخطوطة رقم ٩٦٥٤ بالمكتبة الوطنية بمدريد" ، المؤتمر العالمى الحادى عشر للدراسات الموريسكية ، زغوان ، تونس ، ٢٠٠٣

## تصدير الناشر الإسباني

تصدر موسوعة البحر المتوسط حاليًا فـي خمـس لغـات : الإنجليزية ، والعربية ، والإسبانية ، والفرنسية ، والإيطالية : وهـي عبارة عن إنتاج مشترك أفرزته مؤسسة تضم عددًا من الناشـرين ، ومراكز البحوث التي تنتمي إلى بلدان ساحل البحر المتوسط . ولقد كان الغرض منها إثبات ما إذا كانت منطقة البحر المتوسـط - بمـا تشهده من تعقيدات وخلافات ، وتوترات - تمثـل كيـانًا يقتـضي التعرض له بالتحليل والدراسة . ربما تدفعنا المعلومات المتوفرة فـي الوقت الراهن إلى المسارعة إلى اقتحام هذا المجال ؛ وذلـك لنـدرة الدراسات المباشرة أو غير المباشرة التي يمكن الأخذ بها فـي هـذا الشأن .

وإنه بموجب الخبرة المكتسبة من إصدار الكتـب العـشرين الأولى ، والتي تشكل الجزء الأول من هذا المشروع الشامل ، فـإن الصراع المتوسطي يقتضي منا أن نعمل على إصدار المزيد من هذه السلسلة ، يومًا بعد يوم .

وترتكز مغامرة الموسوعة المتوسطية على محورين رئيسيين : محور ( التاريخ ) الذى يهدف إلى التعمق فى مجال التعرف على الهويات التاريخية ، والتراث الثقافى والفنى الهائل ، باعتبارها عناصر جوهرية تساعد على تكوين خلفية عن البلدان الحالية ، كما تساعد على التعرف على أسباب وجذور النزاعات الحالية ، من خلال ما يجرى من أحداث فى الوقت الراهن ، وفى زمن الاستعمار . والمحور الثانى ( الزمن الحاضر) الذى يتعرض للعلوم الإنسانية والاجتماعية بما فيها من نظرة أنثربولوجية ، ونظرة تتعلق بالاقتصاد الكلى ؛ وذلك سعيًا للوصول إلى تحليل التحولات والتغيرات التى طرأت على الساحة البحر أوسطية ، وخاصة تحليل النقاط الحرجة والالتزامات الدولية .

لقد أصبح البحر المتوسط يمثل أحد مراكز العصبية فى جسد مسيرة العولمة ، ولذلك فإننا لا نستطيع أن نغفل الروابط والعلاقات المحلية والعالمية ، وينبغى أن نتصدى من جديد لقضية حوار الحضارات .

# مقدمة

حقق الإسلام انتشارًا واسع النطاق منذ أن انطلق من مركزه الرئيسى فى شبه الجزيرة العربية ، حتى غطى خلال حقبة زمنية قصيرة للغاية مساحات شاسعة، إذ بلغت حدوده الشرقية بلاد الهند، وامتد غربًا إلى شبه الجزيرة الإيبيرية، وهناك ترسخ وجوده بوصفه قوة سياسية إسلامية خلال الفترة من القرن الثامن الميلادى حتى القرن الخامس عشر. والوجود الإسلامى فى الغرب، إنما هو علاقة التصقت بتاريخ هذه المنطقة التى أطلق سكانها عليها اسم الأندلس . إذن فإن الأندلس كان يمثل منطقة حدودية، أى حدود الإسلام الغربية. وظل يتميز بهذا الوضع الحدودى على مر تاريخه . وبالتالى اكتسب المجتمع الأندلسى فيما بعد سمات حضارتين : الحضارة الغربية، صاحبة الموروث الثقافى الرومانى والمسيحى، والحضارة الشرقية، العربية والإسلامية، مما جعله يتميز عن مجتمعات أخرى فى العالم الإسلامى إبان العصور الوسطى، خاصة بعد أن اندمج المجتمع الأندلسى اندماجًا كليا، نتيجة لحرص الأندلسيين على انتمائهم لهذا العالم.

وسوف نعرض للأندلس فى هذا الكتاب باعتباره قوة سياسية إسلامية فى شبه الجزيرة الإيبيرية. وكانت سمات الواقع المتغير الذى أخذ ينحصر تدريجيا فى نطاق حدوده الجغرافية، التى لا يتعين أن تكون مطابقة لما هو أندلسى، نظرًا لما تضمنته هذه الحدود من مناطق مثل البرتغال وقطالونيا، إضافة إلى هوية الأندلسيين، وهى موضوع الدراسة التى تضمنها الجزء الثامن من هذه السلسلة تحت عنوان "الأندلس والأندلسيون" لمانويلا مارين. إن طبيعة الواقع المتغير، والآخذة حدوده الجغرافية فى الانحسار بصورة مطردة ، وهى حدود لا ينبغى مطابقتها مع ما هو أندلسى، ذلك لأنها تضمنت مناطق أخرى كالبرتغال وقطالونيا، وكذلك هوية الأندلسيين، تناولها الجزء الثانى من هذه السلسلة تحت عنوان " الأندلس والأندلسيون" لمانويلا مارين:

انحدر الأندلسيون أساسًا من سلالة الإسبان- الرومانيين الغربيين ، سكان شبه الجزيرة قبل غزو المسلمين لها، ثم قفزت على هؤلاء السكان الأصليين عناصر عربية قدمت فى أول الأمر ضمن صفوف الحملات العسكرية، ثم ارتبطت فيما بعد بسلطة الأمويين السياسية، وكانت هذه العناصر من البربر، سكان شمال إفريقيا الأصليين، وهؤلاء كانوا يمثلون الغالبية العددية، واتسم وجودهم بالاستمرار، نظرًا لقرب بلاد المغرب، وبفضل العلاقات الوثيقة التى

كانت تربط بين ضفتى المضيق على مر التاريخ، أضف إلـــى تلـــك العناصر الثلاثة الرئيسية (الإسبانية الرومانية، والعربية، والبربريـــة) جماعات العبيد الوافدة من مختلف الأجناس، وكان القطـــاع الأكبـــر منهم ممن وفدوا من شمال شبه الجزيرة ، وإن كانت أعداد أخرى قد قدمت من بلدان أوروبية أخرى. ولذلك اتسمت التركيبة السكانية فـــى الأندلس بالتعدد والتباين. كان هناك أيضًا تنوع ملموس إلى حـــد مـــا بين الجماعات الدينية . فلم يكن الأندلسيون من المسلمين فقـــط، وإن كانوا هم السواد الأعظم، وإنما عاشت معهـــم أقليـــات مـــن اليهـــود والمسيحيين، وكلاهما كان مستوعبا للثقافة العربية ومندمجًا فيها .

إن موضوع الزمن والمعدل التدريجى لتعريب وأسلمة ســـكان شبه الجزيرة الأصليين، من الموضوعات المهمـــة التـــى لـــم تأخـــذ نصيبها من الدراسة كما ينبغى (لا يتعين بالضرورة أن يكـــون ثمـــة توافق زمنى بينهما)، وذلك اعتبارًا من غزو إسبانيا فى القرن الثامن الميلادى. كان الاستيلاء على شبه جزيرة إيبيريا عبارة عن صـــورة من الاتفاق على الاستسلام إلى حد كبير مع السكان المحليين ، وذلك على ضوء ما تناولته الوثائق ومنها" حلف تودمير الشهير"، أو تيودو ميرو **Teodomiro**،حاكم مدينة مرسيه **Murcia**. فقد نص ذلـــك علـــى الاستسلام السلمى، والذى تم بموجب اتفاقات مع عدد من أقاليم شـــبه الجزيرة على الاندماج والانضمام إلـــى الـــسلطة الجديـــدة الثقافيـــة والدينية.

وفى المراحل الأولى للمد الإسلامى نظر بعض المسيحيين إلى الإسلام وكأنه صورة جديدة من صور الهرطقة المسيحية، التى لا تقر بألوهية المسيح (من هؤلاء خوان داماثسينو Juan Damasceno، الذى انبرى للدفاع عن شرعية عبادة الصور فى عصر تحطيم الأيقونات ، ونشر كتابات عن الهرطقات المسيحية فى الشرق) ولم يفاجأ القوط الإسبان بذلك، لأنهم كانوا قد مارسوا شكلاً من أشكال الهرطقة على مدى حقبة طويلة من الزمن، وهى الأريوسية التى تنكر أيضًا ألوهية المسيح. تلك الأمور ذات الطابع الأيديولوجى ، بالإضافة إلى عوامل اقتصادية أخرى (إعفاءات من الأعباء الضرائبية، أو تيسير الانخراط فى جماعات الحكم الجديدة)؛ إضافة إلى تلاشى نخب عصر ما قبل الإسلام ، ومنها الصفوة الكنسية ، ساعدت فى مسيرة الأسلمة بخطى سريعة.

كان إيقاع مسيرة الأسلمة مختلفًا عن إيقاع عملية التعريب، فمن المعروف أن التعريب، وهو يعنى التكامل اللغوى والثقافى، لا يتزامن دائمًا مع التحول الدينى، أى التأسلم. (هذا الجزء مطروح فى الجزء الحادى عشر من هذه السلسلة، تحت عنوان: " الأندلس: معارف وتبادل ثقافى الذى كتبته ماريبيل فييرو ".

أخذت هذه المسيرة فى الانتشار طوال القرنين الأولين من تاريخ الأندلس ، وترتب عليها مناخ اتسم بالتعاون أكثر من كونه

تغييرًا مفاجئًا وجذريا ، لو قدر له أن يحدث بعد الغزو، ربما يكــون قد أفرز مجتمعًا جديدًا متجانسًا، وهو ما لم يحدث.

بقيت فى المناطق الإسلامية خلايا من المــسيحيين المعــربين (وهؤلاء ما عرفوا بـــ"المستعربين" عندما هاجروا إلـــى المنـــاطق المسيحية فى الشمال) حتى أواخر القرن الحادى عشر علـــى الأقـــل، كما بقيت جماعات من اليهود حتى أواخر القرن الخـــامس عـــشر ، واندمجت تلك الجماعات اندماجًا كليا بموجب ما عـــرف بـــــ"عهــد الذمة"، وهو نظام يكفل لهم الحماية ، ويــسمح باحتفـــاظهم بـــديانتهم والقوانين الخاصة بهم، وسلطتهم الكنسية، كما يكفـــل لهـــم اســتقلالاً نسبيا فى إطار حالة من الإذعان والخضوع. وهذا يعنـــى أن غيـــر المسلمين كانوا خاضعين لنوع من التمييز (تحملوا أعبـــاء ضـــريبية قاسية ، مما دفع كثيرين منهم إلى تغيير عقيدتهم الدينية ) إلا أنهم لـــم يتعرضوا للاضطهاد.

نقلت السلطات المسيحية فيما بعد هـــذا النظـــام ، وانتهجـــت تطبيقه فى ممالك الشمال ، عندما بدأ التوسيع المسيحى فى الجنـــوب على حساب الأراضى الإسلامية التى تم ضمها بما فيها مـــن ســـكان مسلمين ("المدجنين" واليهود).

هذه الأقليات (المستعربون والمدجنون واليهود) التى وقعت فى أيدى المسيحيين أو المسلمين نتيجة لما شهدته الحدود من تعـــديلات ،

أو التى اضطرت إلى الهجرة تحت ضـــغط الظــروف الاقتــصادية والسياسية، تعتبر أهم حلقات الاتصال التى انتقــل عبرهـــا التـــأثير الإسلامى إلى المناطق المسيحية.

إذن فإن تشريع العصور الوسطى فى شبه الجزيرة الإيبيريـــة، سواء كان فى المناطق الإسلامية أو المسيحية، اعترف بمـــشروعية استقلال ذاتى للطوائف الدينية، إلا أن ذلك الاعتراف كـــان مقترنـــا بصورة من صور التمييز تشوبها نظرة دونية، من جانـــب مجتمـــع الأغلبية، سواء كان من المسيحيين أو من المسلمين،أضف إلى ذلـــك أن وجود تلك الطوائف واندماجها القانونى، كان مشروطًا بـــالالتزام بالانخراط فى مجالات مهنية معينة، وبالنسبة لممالك الشمال كان ذلك الوجود مشروطًا بالإسهام فى تعمير المناطق التى تم الاستيلاء عليها. إذن فإن هذا الوضع يعتبر بعيدًا عن المثالية، ولا وجه للمقارنة بينـــه وبين قيمنا الحديثة القائمة على التسامح والتعددية الثقافية، وتنطـــوى ضمنيا على حقوق المواطنة، والإقرار بكافة الحقوق، وهذا مـــا لـــم يتوفر فى مجتمع ما قبل العصر الحديث.

استمرت هجرات الأندلسيين إما بـــسبب مـــشكلات سياســـية واقتصادية داخلية وإما نتيجة لتقلص منـــاطقهم تـــدريجيا، أو حتـــى الاستيلاء عليها تمامًا بعد الاستيلاء على غرناطة عام ١٤٩٢،علـــى

مدى فترة زمنية طويلة، اعتبارًا من القرن الحادى عشر، وحتى طرد الموريسكيين فى مطلع القرن السابع عشر. وكان الأندلسيون فى نزوحهم يقصدون جهتين، إحداهما الممالك المسيحية فى شبه الجزيرة، على أثر زحف الحدود السياسية نحو الجنوب، والاتجاه الثانى كان صوب الأراضى الإسلامية بالساحل الجنوبى للبحر المتوسط، وبخاصة منطقة الشرق الأوسط.

لهذا فإن الظواهر المتعلقة بهجرة أهل الأندلس تعتبر ميدانًا جذابًا لعمليات التبادل الثقافى . فقد كان الأندلسيون رسلاً انتقلت عن طريقهم الثقافة من الجنوب إلى الشمال ومن الشمال إلى الجنوب، فقد استقرت جماعات منهم – كالموريسكيين- طوال قرن من الزمان فى مناطق خاضعة للمسيحيين قبل أن يطردوا ويستوطن قطاع كبير منهم فى الشمال الإفريقى، لقد أفرز المهاجرون بعض العوامل الرئيسية المشتركة في كلا جانبى البحر المتوسط الغربى.

ثمة صورة أخرى من صور الهجرة الأندلسية تمثلت فى العلماء والصوفيين والأدباء الذين نزحوا إلى بلاد المشرق. ولسبت هنا بصدد التعرض لهذا الموضوع، فهو مطروح بالفعل فى الكتاب الحادى عشر من هذه السلسلة، وهو من تأليف ماريبيل فييرو **M. Fierro**، وقد أشرنا إليه سلفًا .

بيد أنه يتعين أن ننوه إلى أن الأندلس بوصفه مجتمعًا إسلاميا كان على اتصال ثقافى وفكرى وثيق مع الشرق، بشكل دائم، وذلك عن طريق تأدية فريضة الحج إلى مكة، ومن خلال سعى كل من كان يتطلع إلى أن يكون عالمًا، لتحقيق رغبة ملحة فى التزود بالمعرفة، إلى الارتحال وزيارة بلاد الشرق لمقابلة مشاهير العلماء فى مختلف البلدان الإسلامية.

كثيرون كانوا أولئك الذين أقاموا بعيدًا عن الأندلس، وخاصة فى مراحل تاريخية كان مناخ الإقامة فيها بهذه المنطقة غير موات لهم ( كما حدث بالنسبة لبعض الصوفيين) أو لتوفر فرص العمل فى مناطق أخرى ، كما كان الحال فى مصر بعد غروب شمس الفاطميين.

كان الأندلس شأنه شأن أى مجتمع متعدد الأجناس، مهيئًا لتفجر الصراعات العرقية والدينية ، وهو ما تميل "أسطورة الأندلس" إلى محو هذه الصفة عنه، حيث تقدم لنا إطارًا مثاليا عاما يسوده جو من التعايش الغزلى بين ثلاث ثقافات. لقد كانت هناك ثلاثة أديان حقا ( ولكن ثقافة واحدة فقط، هى الثقافة العربية الإسلامية ) أفرزت حالة من الثراء الثقافى منقطع النظير، ساهمت فيه جميع الطوائف. إلا أن الأقليات الدينية مرت فى الأندلس بظروف عصيبة، وإن كانت تلك

الظروف لم تدم إلا فترة قصيرة، وإن كانت قاسية لما عمدت السلطة الحاكمة إلى فرض شكل من أشكال التعصب الديني، وخاصة في أوائل عهود المرابطين والموحدين، وكذلك كان حال المسلمين الرافضين لتلك الحركات السياسية والدينية.

عمد كل من المسيحيين واليهود إبان تلك الفترات إلى النزوح إلى المناطق المسيحية ( وإن اتجه بعضهم إلى شمال إفريقيا ، كما سيتبين لنا) ، كذلك لجأ من وجهت إليهم تهمة الزندقة ، من المسلمين، إلى مناطق إسلامية أخرى. و من ناحية أخرى ، وفى الوقت نفسه تقريبًا، بدأت كفة المسيحيين ترجح ، وذلك اعتبارًا من القرن الثالث عشر، فى شبه الجزيرة ، ثم بدأت فى المناطق الشمالية مرحلة اصطبغت بتشدد، أخذ يتصاعد تدريجيا تجاه الديانتين الأخريين: الإسلام واليهودية .

نحن نقتحم إذن منطقة حظيت مؤخرًا باهتمام كبير من جانب جهات متعددة (أكاديمية، و ثقافية ، و صحفية، و سياسية،...إلخ)، منطقة شهدت ممارسة معتقدات مختلفة، أدت إلى نسج أسطورة، أسطورة جميلة، تطرح – ككل الأساطير– نموذجًا وتعضده . وكون هذا النموذج جذابًا وإيجابيا، لما يطرحه من إمكانية إقامة مجتمعات جماعية تخلو من التوترات والصراعات الداخلية، وتزداد ثراء

بفضل التعايش المتبادل، والتزاوج الثقافي، ينبغي ألا يدفعنا إلى إغفال أن الأسطورة شئ ، وتدوين التاريخ شئ آخر. فإذا أخفى النموذج المشكلات، فإنه أيضًا لا يطرح لها حلولاً. وانطلاقًا من الاهتمام بالحاضر حقيقة، سوف أحرص هنا على التصدى لموضوع التبادل الثقافي، وقضية بناء هويات مختلف الجماعات والطوائف، وهي هويات تخضع للتغيير حسبما تفرضه الظروف. فالقضية تتعلق بعالم (سوف أحاول التعرض له) تنطلق في أرجائه الأفكار المنتشرة بين طوائفه ومعتقداته المتنوعة بسهولة ويسر، ولذلك يتعذر استيعاب كل ما يدور داخل محيط كل طائفة من طوائفه الدينية الثلاث دون الإشارة إلى طوائف أخرى. كلما انطوت الكيانات المتعددة على عناصر مختلفة ( دينية، ثقافية، اجتماعية) مكتسبة بذلك أهمية كبيرة كانت أو صغيرة، على ضوء ما يطرأ عليها من تغييرات على المحيط الذي تعيش فيه، فعادة ما تكون هذه الكيانات متقلبة متغيرة. وسوف أحرص على إيضاح أن عملية التحول إلى دين من الأديان، لم تحدث انطلاقًا من مجرد اقتناع إيماني بتعاليم هذا الدين ، إنني أعتقد أن مختلف عمليات الهجرة التي قام بها الأندلسيون، تكشف كيف أن الأمر كان عبارة عن اعتناق ثقافة ما، بالمدلول الأنثروبولوجي للفظ ، قبل أن يكون انخراطًا في نظام ديني ، وأن

معدل هذا الانخراط ، إنما هو معدل متغير، ومحصلة مكونات متعددة.

ومن الناحية التاريخية أيضًا، نلاحظ أن الدراسات التى نحن بصددها الآن، قد واجهت عبئًا أيديولوجيًا قويًا طبقًا للمفاهيم المختلفة للهوية الإسبانية التى كانت مثار جدل منذ القرن التاسع عشر: وهو ما عرف بـ"مشكلة إسبانيا" فالمسألة تتعلق إذن بالهوية، الهوية الإسبانية هذه المرة . هوية قدّر لها أن تتسم بسمات غير قابلة للتغيير فى ذلك الحين.

ومن وجهة النظر الأوروبية، أو الغربية، فإن السمة الغالبة على العصور الوسطى الإسبانية، والتى ميزتها عن غيرها، إنما تكمن في وجود الإسلام فى شبه الجزيرة الإيبيرية: صراعات طويلة، وتربص كل طرف بالآخر، وعمليات التأثير والتأثر، كلها عوامل تبرز جانبًا كبيرًا من تاريخ وثقافة مختلف الأقاليم الإيبيرية. قد بدت هذه السمة أحيانًا، كما حدث مؤخرًا، وكأنها عامل من عوامل الإثراء، وعنصرًا من عناصر شخصية متميزة، ولكنها بدت فى أحيان أخرى وكأنها سبب من أسباب تخلف الإسبان بالنسبة للأمم الأوروبية الأخرى. وكم آلمت الإسبان مقولة إن" إفريقيا تبدأ بجبال البرانس" منذ أواخر القرن الثامن عشر..إن "أصل الإسبان وكيانهم"

هذا إذا رجعنا إلى عنوان الكتاب الشهير لأميريكو كاسترو Americo Castro، نجد أنه قد تحدد دائمًا من منطلق العلاقة بذلك الصراع وتلك المواجهة، أو من منطلق عمليات التأثير المتبادل. هذا ويتوقف طرح هذا الموضوع على مواقف أيديولوجية(وفى هذا ينبغى أن نذكر بالجدل الشهير الذى دار حول هذه القضية بين رأى أميريكو كاسترو، وسانشيث ألبورنوث Sanchez Albornoz وسواء كان الطرح على ضوء الصراعات، أو مستندًا إلى عوامل التأثير والتأثر( وليكن واضحًا أن الأول لا يعنى إغفال الثانى، أى أن التوترات والصراعات بما فيها الحرب، لا تقف عائقًا أمام المؤثرات الثقافية) فإن الأقليات تمثل محور تواصل حقيقى، ومن ثم، فإننا إذا أخذنا فى الحسبان تلك القائمة المطولة من الكتب، فإن من الصعوبة بمكان أن نضع تصورًا نزعم أنه تصور موضوعى، خاصة أن توظيف هذه الدراسات من وجهة النظر الأيديولوجية قد ميز مناطق عن مناطق أخرى مازالت معلوماتنا الإيجابية عنها غير كافية. فمثلاً يؤكد سانشيث ألبورنوث على أن استيعاب المستعرَبين(*) mozarabes للثقافة العربية كان استيعابًا سطحيًا، ومهما كان الأمر فإنهم لم يكونوا مؤهلين لنقل الثقافة الشرقية. ويرى أن الأندلس لم يشهد أى ثقافة شرقية، وأن ما كان

---

(*) يجب أن نفرق هنا بين المستعرب mozarabe (المسيحى الإسبانى الذى يقيم فى مملكة إسبانية مسلمة) وبين المستعرب arabista ( الباحث المهتم بالثقافة العربية). (المراجع)

هناك إنما هو مجرد مسحة خفيفة مآلها الزوال، وهذه المسحة فرضت نفسها على شعوب رومانية وقوطية وثقافتهم في ذلك البلد الذى أطلق عليه " إسبانيا المسلمة"، ولهذا السبب لم تجر أبحاث حول التنظيم الاجتماعى للمستعربين فى القرن التاسع فى ليون Leon ، كذلك لم يتم إجراء أى دراسة بصدد التغييرات التى أدخلت على النظام الغذائى أو على تقنيات الزراعة ولا على مدى التأثير على المؤسسات العمرانية.

كل ذلك يتفق وتناول تاريخ الهجرة الأندلسية، موضوع هذا الكتاب، للعلاقة الوثيقة بين هذا التاريخ وتاريخ الأقليات فى مناطق شبه الجزيرة فى العصور الوسطى. ولقد كانت هذه الأقليات وما زالت، تمثل كما ذكرنا قيمة رمزية كانت محل تفسير طبقًا لوجهات نظر مختلفة.

لنستقرئ ثانية موضوع المستعربين mozarabes الذى تناوله الفصل الأول من هذا الكتاب . كان المستعربون بمثابة نقطة محورية فى عملية إقرار جذور فترة ما قبل الإسلام فى بنيان الكنيسة الإسبانية، ومقارها الأسقفية، كما كانوا عاملاً من أهم العوامل الأيديولوجية فى مسيرة الحملة العسكرية الإسبانية الطويلة على المناطق الإسلامية فى شبه الجزيرة والمغرب. كما كانوا أيضا هم

العنصر الأيديولوجى، الذى استعانت به الممالك المسيحية وخاصة مملكة أستورياس- ليون، للاضطلاع بمسئولية التصدى لموضوع التراث القوطى، ولإضفاء صفة الشرعية على عملية حرب "الاسترداد" . لقد تحول المستعربون فى أيامنا هذه، كغيرهم من الأقليات الأخرى فى أراضى شبه الجزيرة المسيحية والإسلامية، إلى عامل أيديولوجى على قدر كبير من الأهمية ، كما تعتبر هذه الأقليات دليلاً يحتذى لإضفاء صفة المشروعية على التعددية الدينية أو الفكرية فى المجتمعات المعاصرة، سواء فى العالم الأوروبى بما ينطوى عليه من مشكلات قومية متطرفة وأزمات أفرزتها الأقليات المهاجرة، أو فى العالم الإسلامى بما يكتنفه من تيارات إسلامية اصطبغت بصبغة دينية واحدة.

ويعد هذا الكتاب استكمالاً لكتابين لكل من مانويلا مارين M. Marin، وماريبيل فييرو M. Fierro سبق أن أشرنا إليهما ، ويتعين ألا يقرأ بمعزل عنهما ، وهو يتناول جماعات مختلفة فى المجتمع الأندلسى، سبق أن عاشت خارج الأندلس، وهذه المجموعات أو الجماعات أقدّمها فى هذا الكتاب، وقد راعيت فى طرحها تقسيمًا تاريخيا طبقًا للزمن الخاص بكل منهما، والمناطق التى توجهت إليها كل مجموعة . وسوف أبدأ بمناطق الشمال بحديث عن المستعرّبين Mozarabes واليهود والمدجنين.

## (١)

## المستعرَبون

أصل كلمة Mozárabe بالإسبانية ، وmossarabe بالقطالونية ، و Mocarab بالبرتغالية غير معروف. ويرى مستعرِبو القرن التاسع عشر arabistas أن هذا اللفظ جاء من كلمة "مستعرب" ، أى من تم تعليمه الثقافة العربية ، أو من يزعم أنه عربى ، وهذا اشتقاق مقبول، إلا أن هذه التسمية لم ترد فى نصوص الأندلس العربية ، ولم يأت ذكرها مطلقًا فى سياق الحديث عن الأقليات المسيحية التى عاشت فى كنف الأندلس ، بل وردت فى نصوص العصور الوسطى المسيحية عند الحديث عن المسيحيين الذين نزحوا من الأندلس ، أو أطلقت على من بقى من المسيحيين فى المناطق الإسلامية التى استولى المسيحيون عليها. وقد وصفهم الأسقف رودريغو خيمينيث Rodrigo Jiménez فى رسالة إخبارية له فى القرن الثالث عشر بالعرب المختلطين ، علمًا بأن لفظ مستعرَب mozárabe ذكر فى إحدى وثائق ليون León فى شهر مارس عام ١٠٢٤ ، تحدث فيها الكاتب عن ثلاثة مستعرَبين تحت عنوان Tres muzárabes de rextiraceros.

وأشار في هذا النص إلى المسيحيين المستعرَبين الذين وجدوا في ممالك الشمال منذ أن بدأت مملكة ليون **León** حملاتها التوسعية ، وحتى غزو طليطلة فى عام ١٠٨٥ ، إلا أن النص خلا من الإشارة إلى المسيحيين الذين بقوا في الأندلس ، وهؤلاء سوف أكتفى بمجرد الإشارة إليهم فى معرض الحديث (يرجع القارئ المهتم إلى الجزء الخاص بماريبيل فييرو سالف الذكر).

هذا ويطلق لفظ مستعرَب **Mozárabe** أيضًا على الأعمال الفنية والمعمارية والموسيقية ، وعلى الصور التوضيحية فى المخطوطات، أو المتعلقة بطقوس المستعربين ، وقد أطلق أيضًا على الأساليب الفنية التى كانت تمارسها جماعات أو أشخاص غير مستعرَبة ، كما هو الحال بالنسبة لفن المدجنين **Mudéjares**. أى أن الأسلوب الفنى المستعرَب لا يعنى بالضرورة أنه ظهر فى وجود سكان مستعرَبين.

## مملكة أستورياس وليون:

عاش المستعرَبون فى مملكة أستورياس وليون منذ القرن التاسع على الأقل . وقد جاءوا ضمن وفود المهاجرين التى تدفقت من الأندلس ، وهم فى غالبيتهم من رجال الدين والرهبان. وقد عاشوا هناك جنبًا إلى جنب مع المدجنين ، واختلطوا معهم فى بعض

الأحيان ، وعاشوا فى مناطق استولت عليها مملكة ليون الفتية. وللتعرف على موضوع أصل السكان المستعربّين والمدجنين فى منطقة حوض نهر الدويرو Duero ، يتعين أن نتعرض لقضية جدلية قديمة دارت حول إخلاء هذه المنطقة من السكان.

لعل أهم من تعرض لهذا الجدل فى حينه هو منينديث بيدال Menéndez Pidal ، الذى يرى أن عملية الإخلاء تلك لم تحدث مطلقًا، وسانشيث ألبورنوث Sánchez Albornoz الذى يؤكد وجود منطقة خالية إستراتيجية حول نهر الدويرو كانت تفصل بين المسيحيين والمسلمين، لحمايتهم من الجيوش عند وجود منطقة فاصلة يتعذر فيها إمداد الجيوش بالمؤن. ولعل وجود الأسماء التى تنتمى إلى أصول عربية بوفرة فى مملكة ليون ، اعتبارًا من القرن العاشر على الأقل ، إلى جانب اتساع المواقع الجغرافية ذات المسميات العربية فى المنطقة نفسها ، من أهم المؤشرات التى ترجح وجود تجمع سكانى كبير من أصل مستعرب ، ممن هاجروا فى فترات سابقة ، وهذا التجمع أعاد تعمير المنطقة ، ومما شجع هؤلاء السكان على الهجرة إلى ليون السياسة التى كان يتبعها ملوك ليون ، إضافة إلى عمليات الاضطهاد التى تعرضوا لها فى الأندلس.

وجاء فى وثائق ليون ، منذ القرن التاسع ، سيل جارف من المسميات التى ترجع إلى أصول عربية. ومن أهم الخصائص

المميزة لتلك المسميات ما يتمثل فى المحيط العائلى الواحد من وجود أسماء عربية وغير عربية. وترجع هذه الخاصية التى تميز منطقة حوض نهر الدويرو، إلى وجود عنصر مستعرَب **Mozárabe** ، هاجر من الجنوب وأقام فى هذه المنطقة على مدى القرن العاشر الميلادى. وقد أطلق اسم مستعرَب على هذا العنصر طبقًا لثلاثة معايير. تعريب تؤكده الأسماء ، واتصاله بالمحيط الكنسى، بل والانتماء إليه دليلاً على أن قطاعًا من هذا العنصر على الأقــل كان مســيحيا ، وأخيرًا – كما سبق أن أشرنا ، وهذا عامل جوهرى- يتمثل فى أن المناطق التى يقيم بها هذا العنصر كانت خالية من السكان، وأنها شهدت تدفقًا بشريا فى الفترة التى سبقت الإشارة إليها فقط. وإذا اعتبرنا المعيارين الأول والثانى أمرًا مسلمًا به فإن الافتراض الخاص بالمنطقة الخالية الإستراتيجية تكتنفه الشكوك ، وكل الدلائل تثير فى الأذهان أن سكان تلك المنطقة الأصليين أقاموا بها إقامة دائمة وليست متقطعة. وإذا كان هذا لا يتعارض مع وجود حركة هجرة مؤكدة من الجنوب فإن هذه الحركة لم تكن بالكثيفة كما يرى مؤيدو نظرية الإخلاء السكانى. فالأبحاث الأثرية التى أجريت حول أسماء المعالم الجغرافية فى السنوات الأخيرة تشير بوضوح كبير إلى أن حركة الاستيطان البشرى فى منطقة سلسلة الجبال الوسطى ووادى نهر الدويرو كانت تتسم بالاستمرارية إبان العصور الرومانية والقوطية.

ولقد أكدت أبحاث أجريت مؤخرًا، مستندة فى ذلك إلى نتـائج تحليلات خاصة بمباحث حول أسماء بعض الأعـلام الجغرافيـة، أن سكانًا من المسلمين والمسيحيين سبق أن أقاموا إقامة ثابتة ومـستقرة بالمنطقة. وتشير الوثائق المحفوظة إلى أنه قبل عام ١٠٨٥م، وهـو العام الذى تم فيه غزو طليطلة، وآبله Ávila، وسـيغوبيا Segovia ، كانت هناك فى تلك المناطق أسماء أعلام جغرافية تؤكد وجود سكان يتحدثون العربية.

ويتكرر الوضع إلى حـد كبيـر فـى كـل مـن مقـاطعتى بورغوسBurgos وسورية[*] الحاليتين : ثمة مؤشر على وجود سكان أصليين أقاموا فى تلك المناطق بعد تعريبها، بل وأسلمتها، وذلك قبل إقامتهم فى المناطق المسيحية.

هناك أمثلة معروفة بين المنتسبين إلى الطبقـة الأرسـتقراطية تتحدث أيضًا عن وضع العرب المختلطين : هنـاك انييغـو أرسـتا Iñigo Arista (٨٥١-٨٠٣)، أول ملوك نبرّه Navarra، ربما كان ابنًا لأحد المواطنين الباسك Vascos، الذين سبق أن دخلوا فى الإسـلام، ثم عادوا بعد ذلك إلى ديانتهم القـديمة، وعمومًا، فقـد كان لـه أخ غير شقيق مسلم، وصهر مسلم . مثال آخـر : فـى أوائـل القـرن

---

(*) قشتالة القديمة. ( المراجع )

العاشر، تزوجت إحدى الأميرات المسلمات المنتسبات إلى الأسرة الحاكمة في سرقسطة بني قاسى (وهم بدورهم من سلالة نبيل إسبانى هو الكونت كاسيو)، تزوجت الملك فرويلا Fruela الثانى، ملك ليون، بعد أن اعتنقت المسيحية وأصبح اسمها أوراكا Urraca.

كل هذا لا ينفي أن مستعربين هاجروا في عهد ألفونسو الثالث، قاصدين المناطق الشمالية. وفي حوالى ٨٥٠م قامت حركة عرفت باسم "شهداء قرطبة" : وهم جماعة من المسيحيين استفزهم الانحسار المتنامى للهوية الدينية والثقافية (تراجع تدريجى للغة اللاتينية، واللغة الرومانثية(*)، وإحلال العربية مكانهما)، قامت هذه الجماعة بمحاولة لدعم المسيحيين تمثلت في توجيه السباب للإسلام علانية، مما أدى إلى إبطال العمل بعهد "الذمة" وكانت هذه الشتائم بمثابة إقدامهم على الانتحار بالفعل حيث نفذ فيهم حكم الإعدام (انظر. المرجع المذكور لماريبيل فييرو Fierro M.). وقعت تلك الأحداث في عهد عبد الرحمن الثانى ومحمد، وترتب عليها موجة من الهجرة، دامت طوال قرن من الزمان، وإن كانت بأعداد محدودة. أقام المستعربون، كما أقام غيرهم من المهاجرين من الشمال في محيط عائلى، أو جماعات من الرهبان، خاصة في الجزء التابع

(*) هى اللغة المشتقة من اللاتينية والتى كان يتحدثها بعض الأقاليم الإسبانية. (المراجع)

لمملكة ليون، بوادى نهر الدويرو. قدموا من منـــاطق شـــهدت فيهـــا الزراعة تقدمًا تقنيًا وهندسيًا مهمًا، اعتبـــرت إضـــافة جديـــدة إلـــى الأساليب التقليدية السائدة فى منطقة البحر المتوسط. وأبـــرز كليـــك Glick،انتشار استخدام زيت الزيتون، كمؤشر لمدى تأثير المستعربين فى اقتصاد مملكة ليون.

يقول المؤرخ العربى ابن حيان أن سموره Zamora اســتقبلت مسيحيين وفدوا من طليطلة فى عام ٨٩٣، وأن هـــؤلاء المهـــاجرين أقاموا سور المدينة، وما إن تم تحصين السور، إلا وهرع إليه قـــوم من جانب الحدود العربية. كما استقبل الفونسو الثالث شخصيا مطران إيركافيكا، وكان مستعربًا، ثم منحه حـــق الإقامـــة فـــى أوريـنـــسى Orense. كما ابتاع كنيسة القديـــسين فاكونـــدو Facundo وبريميتيبـــو Primitivo، وكانت خرابًا، وذلك فى عام ٩٠٤، لتكون مقرًا يقيم بـــه رئيس دير يدعى الفونسو مع رفاق له، قدموا من الأندلس، وأصبحت هذه الكنيسة فيما بعد هى دير ساهاغون Sahagun . واختـــار الملـــك رئيس الدير ألفونسو هذا ليكون معلمًا لابنه الأكبر السيد غارثيا Don García. وأقام عدد من الرهبان الذين قدموا من قرطبة أديرة إسكالادا Escalada، وماثوتى Mazote، وكاستانييدا Castañeda. كذلك أقامـــت سيدة تدعى بالماريا Doña Palmaria مع رفيقاتها، وكن قد قدمن أيضًا من الأندلس، دير فيمى Vime، فى شـــنبرية Sanabria، ويحتمـــل أن

يكون هذا الموضوع قد تكرر بالنسبة لأديرة أخرى، بقى فيها ما يحمل اسم مارتينوس أبا كوردوينسيسMartinos Abba Cordorensis.

لم يسهم هؤلاء المهاجرون فى نقل المعارف التى تتعلق بالخصائص الفنية العربية - والتى تركت آثارها فى عمارة المنطقة- فحسب، بل أسهموا أيضًا فى نقل اللغة العربية فترجموا إليها مخطوطات الأديرة اللاتينية. وهنا يتعين أن نأخذ فى الاعتبار أن سفر المزامير، والمزامير، وكتب اللاهوت، سبق ترجمتها فى الأندلس إلى اللغة العربية، وأن المستعربين كانوا يقرءون الكتب الدينية بالعربية، فقد كانوا يجيدونها أكثر من إجادتهم للغة اللاتينية (انظر الفصول الخاصة بهذا الموضوع بالمرجع السالف ذكره لماريبيل فييرو M. Fierro ) . ويرجع مخطوط دير سيلوس Silos بعنوان Breviarium et missale Mazarabi cum ، والمعجم العربى اللاتينى، إلى القرن العاشر، وقد كتب كلاهما جزئيا على الورق (وهذا كان يمثل إضافة يرجع الفضل فيها إلى المستعربين) وهما محفوظان حاليًا فى ليدن Leinden .

لم تنقطع علاقات المستعربين فى ليون بإخوانهم فى الدين بالأندلس مطلقًا، وهذا ما تؤكده عمليات تبادل المخطوطات ورفات القديسين فيما بينهم. ويُعتبر رجال الكهنوت المستعربون هم ورثة

الكنيسة القوطية الغربية. ومن الغريب أن رجال الكهنوت هؤلاء، الذين تعمقوا في دراسة الثقافة العربية، هم الذين أدخلوا في الممالك الشمالية فكرة التواصل أو الاستمرارية القوطية باعتبارها من العناصر الشرعية، كما أدخلوا أيضا فكرة الاسترداد(*) Reconquista، التي ظلت غائبة طوال القرن الأول من توسع الممالك المسيحية نحو الجنوب. بفضل هؤلاء المستعربين جزئيا، تحولت أوبييدو Oviedo أولاً، بل وليون بالذات، إلى مركز إشعاع للكتب القديمة، تكدست فيهما مخطوطات، لم تنعكس آثارها على إثراء الثقافة الكنسية فحسب، بل ساعدت وأسهمت في أن تصبح مملكة ليون صورة طبق الأصل واستمرارًا لمملكة القوط. ولقد واصلت المخطوطات تدفقها من جنوب شبه الجزيرة طوال القرنين التاسع والعاشر الميلاديين بفضل تدفق هجرات المستعرَبين الأندلسيين.

كان هناك كثيرون ممن هم على دراية بالثقافة العربية في بلاط ليون ومقر الأسقفية، بل وشغل بعضهم مناصب مهمة ، علاوة على الوصي على ولي العهد الذي أشرنا إليه، كان بين رجال القصر الملكي عشرة قضاة، وخمسة معاونين، وثلاثة خدم للملك في وظائف

(*) مصطلح "الاسترداد" لا يقبله الباحثون الإسبان كلهم، فالاسترداد هو العودة إلى امتلاك شيء كان موجودًا وهناك مؤرخون إسبان يرون أن المسلمين هم الذين أوجدوا تلك القوميات. راجع أميريكو كاسترو ومناظراته مع سانشيث ألبورنوث (المراجع).

قضائية. أضف إلى ذلك، مفوضا أو مفتشًا أمنيـا، وقاضـيًا خاصـا بالملك، وأمين صندوق (خازن)، وكونت، وأربعة من كبـار الخـدم، ومفوضين، وخازن مؤن، وفارس للملك (حامل راية) فـى قـشتالة، ورئيس شرطة (صاحب الشرطة) فى مدينة تورو **Toro** وآخر فـى ساهاغون **Sahagon**، وهذا الأخير جاء من قرطبة فى عـام ١٠٠٣، لعقد اتفاقات سلام مع المسيحيين بعد وفاة المنصور. كان يغلب على أسماء هؤلاء العاملين لقب القرطبـى والطليطلـى. ولعـب هـؤلاء الأشخاص، المستعرَبون من الأعماق، بما كانوا يتميزون به من إلمام بشئون الإدارة، والتنظيم، والسياسية، دورًا رائدًا فى تطـوير مملكـة ليون الشابة . وفى عام ٨٨٣، كلـف ألفونـسو الثالـث المـستعرَب دولثيديو **Dulcidio**، الذى لجأ من طليطلة، وألحقه إلى بلاطه، بمهمـة فى قرطبة، وكان لهذه المهمة صدى كبير وانعكاس على ثقافة مملكة أستورياس – ليون، وكان دولثيديو قد نقل إلى أوبييدو رفات القـديس إيولوخيو(*) **Eulogio**، والقديسة ليوكاديا **Leocadia** قبل أن يتم تعيينـه أسقفا لسلمنكا **Salamanca**.

لا يتسع المجال هنا لسرد الاتصالات العديدة والمتكـررة مـع

---

(*) كان إيولوخيو هذا يسب الإسلام علنًا فى قرطبة إبان خلافة عبد الرحمن الثانى، وقـد صـبر الخليفة كثيرًا على تطاوله، حتى توفى، وما إن تولى الخلافة من بعده ابنه محمد حتـى أمـر بإعدام إيولوخيو، وهكذا انتهت الفتنة. (المراجع)

الأندلس عبر المستعربين، ولكن يتعين علينا أن نأخذ بعين الاعتبار على سبيل المثال لا الحصر الاتصالات التى أجراها فرناندو الأول ملك ليون، وبصورة خاصة اتصالات الفونسو السادس مع مملكة طليطلة العربية، ومع جماعات المستعربين فى قلنبرية **coimbra** ، ولا ينبغى أن نغفل أيضًا البعثة التى أرسلها الفونسو السادس إلى إشبيلية فى عام ١٠٦٢، والتى أسفرت أساسًا عن نقل رفات القديس إيسيدور **San Isidor** من إشبيلية إلى ليون. وكان مهندس تلك الاتصالات من قبل التاج المسيحى مع المسلمين الكونت المستعرب سيسناندو دافيد **Sisnando David**، وكان فى خدمة السلطان المعتضد أولاً، ثم التحق فيما بعد بخدمة فرناندو الأول، وهو الذى أوصاه بغزو قلنبرية **coimbra** عام ١٠٦٤، وقد عُين حاكمًا لها فيما بعد. وعين أيضًا مستشارًا لألفونسو السادس، وشارك فى المفاوضات التى أجريت بشأن استسلام طليطلة.

إذا كانت وثائق ليون الخاصة بالعصور الوسطى المتقدمة زاخرة بأسماء عربية لأشخاص ولأعلام جغرافية ، فهى غنية أيضًا بمفردات عربية الأصل ، تؤكد مدى التأثير العظيم الذى أحدثته المؤسسات الإدارية الإسلامية التى أدخلها وأدارها المستعربون. قلما وجدت هذه الألفاظ فى المجال الزراعى، ولكنها موفورة فى المجال العمرانى والمناصب الإدارية المدنية، منها على سبيل المثال **Alvasile**

أى الوزير، و Sahbasçorta أى صاحب الشرطة ، و zavazouke أى صاحب السوق، و Alcalde أى القائد Sialcadei، والقاضى almoxerif أى المشرف، هذا بالإضافة إلى عدد لا نهائى من الألفاظ المتعلقة بالجانب الاجتماعى والإدارى. وتكشف المفردات المتعلقة بالنظم العمرانية، والأحياء، والتحصينات، والعناصر المتصلة بالمدن، مدى التأثير الإسلامى العربى.

فى أوائل العصور الوسطى كانت حالات الإشغال الحضرى والزراعى منفصلة بعضها عن البعض الآخر فى الممالك المسيحية ، خلافًا لما كان يجرى فى الأندلس. وقد لمست أول حركة للتمركز فى أواخر القرن العاشر، ثم تصاعدت فى القرن الحادى عشر. أما ذلك الوضع الحضرى المبكر فى كل من قشتالة وليون فإنه يتميز بتأثر شديد بالنماذج الإسلامية، ربما كان ذلك نتيجة لتقليد أقرب النماذج، أو أنه يرجع إلى مكانة صاحب السيطرة، وربما كان ذلك أيضًا نتيجة لهجرة المستعربين. ومن السمات المميزة لهذه العملية، انتشار الكلمة العربية المدينة (medina) ، والتى أفصح خايمى أوليفر Jaime Oliver عن مدلولها كباعث للحياة الحضرية فى قشتالة. وقد ظهر هذا اللفظ فى مناطق لم يشغلها المسلمون على الإطلاق، وخاصة فى شمال قشتالة القديمة، بل وفى بلاد الباسك حيث كانت كلمة مدينة medina تعنى مدينة محاطة بسور، بها قلعة، وساحة أو سوق. ومن دلائل

ذلك أيضًا الأسماء المكانية المشتقة من كلمة السوق **zoco**، التى نشاهدها فى بلاد (الباسك) "**ozoga**" أو "**asoka**" . وفيما يبدو أن الصيغ الحضرية عمومًا كانت قد اصطبغت بدلالات إسلامية فى عهود مبكرة كما تشير ألفاظ مدونة بالوثائق، منها **arrabal** بمعنى الربض، **adarve** بمعنى الدرب، و **Alcazaba** وتعنى القصبة، و **aldea** وتعنى الضيعة... إلخ، وهى ألفاظ تدل على أجزاء طبيعية من المدينة. ثمة ألفاظ أيضًا، سبق أن ألمحنا إليها، تعنى الإشارة إلى السلطات والمؤسسات الحضرية. وقد حدث فى عصر متأخر أن تطور المدن فى قشتالة وليون أصبح يمضى فى خط متواز مع المدن الأوروبية، وعندئذ ظهر نوع آخر من الألفاظ مثل **burgo** أى برج، وظهر هذا الشكل فى أول الأمر على طول الطريق إلى شنت ياقب أو سانتياغو **Santiago**.

نستطيع أن نؤكد إذن أن عنصر المستعربين **Mozárabe** اكتسب أهمية جوهرية إبان القرون الأولى من عمر مملكة ليون. وبمرور الزمن أخذ المستعرَبون فى الذوبان مع بقية المواطنين المسيحيين بصورة يصعب تمييزها، كما بدأت عملية إحلال عناصر أوروبية استقدمت من بلدان أوروبية أخرى (وخاصة من فرنسا بناء على أمر كلونى **Cluny**)، أو موظفين من اليهود الذين وفدوا من الأندلس محل الموظفين من المستعربين فى البلاط .

طليطلة :

استولى ألفونسو السادس على مدينة طليطلة فى عام ١٠٨٥م، وهذه المدينة جديرة باهتمام خاص، فقد كانت تضم بين سكانها عددًا كبيرًا من المستعربين Mozárabe. ولم تتأثر هذه الفئة بوجود رهبان دير كلونى Cluny المكثف فحسب، بل لأن أهمية جموع المستعرَبين فقدوا أهميتهم وفاعليتهم فى نظر القشتاليين. علمًا بأن المستعرَبين كانوا هم أكثر العناصر الديموغرافية أهمية فى طليطلة، وأهم علامات تفرد المدينة وتميزها حتى القرن الثالث عشر. ثم انضم إلى طائفة المستعرَبين فرقة أخرى أطلق عليهم اسم المستعرّبين الجدد neomozárabes، وهم المسلمون الذين تحولوا بعد الغزو إلى المسيحية. حافظ المستعرَبون على استخدام اللغة العربية، سواء كان ذلك حديثًا أو كتابة على مدى زمنى طويل، وهذا ما يتأكد من خلال ١٢٠٠ سند شرعى (تم نشرها حتى الآن) باللغة العربية، يرجع تاريخ توثيقها إلى أواخر القرن الثالث عشر. وتدل هذه الوثائق العربية والتى تمت صياغتها بلهجة عامية على استخدام اللغة العربية فى التخاطب فى الفترة نفسها .

هاجر من طليطلة مستعرّبون قاصدين أراغون Aragon ، حيث منحهم ألفونسو الأول امتيازًا عام ١١٢٦، كما اتجهوا إلى

الشرق Levant، وخاصة إلى مملكة فالنسيا Valencia، بعد استيلاء السيد El Cid عليها فى عقد التسعينيات . وكان السيد نفسه من المستعرَبين الجدد قبل الاستيلاء على المدينة أى بوصفه مسيحيا مستعربًا، فى مملكة سرقسطة Zaragaza المسلمة. فى ذلك التاريخ قرر غريغوريو السابع Gregorio VII ، فى محاولة منه، لتركيز سيطرة روما على الحياة الكنسية، وتوحيد طقوس الصلاة، واقتلاع ما أسماه بالخرافة الطليطلية، وهى لم تكن سوى مجرد صلاة وترانيم مستعرَبة، مشتقة من الطقوس القوطية القديمة. وقد أعيدت هذه الشعيرة فى عام ١٥٠٠ على يد الكاردينال ثيسنيروس Cisnero، وهذا دليل واضح على وجود جماعات احتفظت بذكرى هويتها المستعرَبة حتى ذلك الحين فى طليطلة.

## المغرب :

كان عام ١١٢٥ عامًا حاسمًا بالنسبة لوضع الجاليات المسيحية فى الأندلس. فى هذا العام، وصل ملك أراغون Aragón، الملك ألفونسو الأول المحارب على رأس جيشه إلى غرناطة. إلا أن حملته العسكرية تلك باءت بالفشل، فاضطر إلى الانسحاب. وترتب على هذه الهزيمة أن اضطر من انضم إليه من المسيحيين إلى الهجرة نحو الشمال. وقررت السلطات المسلمة (المرابطون فى ذلك الحين) من

جانبها إبعاد المسيحيين المقيمين على أرضهم، والذين نقضوا عهد الذمة، من الأندلس إلى المغرب، وذلك بدعوى مساندتهم لعدو خارجي. وقد تمت عملية الإبعاد الأولى عام ١١٢٦، ونفذت عملية أخرى عام ١١٣٨. استوطن هؤلاء المسيحيون فى مدن مثل مكناس، أو سلا، أو فاس، أو مراكش، وصرح لهم ببناء كنيسة فى الأخيرة. ثم انضم عدد كبير من هؤلاء المستعرَبين إلى صفوف فرق جيش المرتزقة المسيحيين، التى شكلها المرابطون فى المغرب. وهؤلاء المسيحيون الذين أبعدوا كانوا قد اختاروا ألا يتبعوا ألفونسو المحارب لدى عودته نحو الشمال المسيحى، مفضلين البقاء فى المناطق الإسلامية التى ألفوا الحياة بها. وثمة عدد كبير آخر من المسيحيين دخل فى الدين الإسلامى. هذا كله أدى إلى خلو الأندلس من المسيحيين فى أوائل القرن الثالث عشر، عدا المرتزقة، أو الأسرى، أو التجار القادمين من مناطق أخرى، أى المسيحيين الغرباء، وهم ما يمكن أن نطلق عليهم اسم المستعرَبين الجدد. وتكمن أهمية هذه المسألة فى أنها تعنى أنه لم يكن فى المناطق الأندلسية التى تم الاستيلاء عليها فى القرن الثالث عشر سكان مسيحيون ترجع أصولهم إلى فترة ما قبل الغزو الإسلامى، وفى عهد قريب ادعت بعض الجماعات القومية وجود مواطنين مستعرَبين فى فالنسيا عندما استولى عليها خايمى الأول ملك أراغون **Aragón**، وأن هذا

يعنى أيضًا أن لغة فالنسيا (المشتقة من الرومانثيرو التى يتحدث بهــا هؤلاء المستعرّبون)، إنما هى لغة مختلفة عن اللغة القطالونية، التــى أدخلت عن طريق الغزاة الأراغونيين - القطالونيين. ولعل إثبات هذه النقطة لا يتيسر بما لدينا من دلائل أو مؤشرات تاريخية.

لقد اختفى وجود المسيحيين الذين ترجــع أصولهــم إلى فترة ما قبل دخول الإسلام إلى الأندلس، اعتبارًا من أوائل القــرن الثــانى عشر. أما بالنسبة لليهود، فالوضع يختلف.

## (٢)

### اليهود

مر اليهود بظروف حياتية غاية في القسوة إبان العصر القوطي، مما جعلهم يستقبلون وصول المسلمين إلى أرض شبه الجزيرة بارتياح منقطع النظير، متوسمين في ذلك متنفسًا لتحسين أحوالهم، فسرعان ما انخرطوا في الثقافة العربية. وقد شهد يهود الأندلس، بما أسهموا به من مشاركة تامة في الثقافة العربية الإسلامية قرنًا ذهبيا حقيقيا في عصر الخلافة الأموية، وعصر ملوك الطوائف، فيما يتعلق بالفكر والثقافة . ويعتبر هذا القرن صفحة من أنصع صفحات تاريخ اليهودية في العصور الوسطى. ولقد كان ليهود الأندلس دور غاية في الأهمية في نقل معارف الأندلس إلى أوروبا. لم تحاصرهم قيود مهنية، طبقًا للشريعة الإسلامية (خلافًا لما كان يحدث لهم، كما سنرى، في المناطق المسيحية) حتى بلغوا شأنًا عظيمًا في عصر الخلافة الأموية وعصر ملوك الطوائف فيما بين القرنين التاسع والحادي عشر، سواء كان ذلك في الجوانب الاجتماعية أو الاقتصادية أو الثقافية. ونظرًا لأن الثقافة الإسلامية الرفيعة، وخاصة فيما يتعلق بالجانب العلمي (الفلك، والرياضيات،

والطب)، لم تكن حكرًا فى الأندلس على الفئات الكنسية، كما كان الحال في المناطق المسيحية المعاصرة، تمكن اليهود من المشاركة فيها، خاصة وأنهم أصبحوا مستوعبين للثقافة العربية بشكل كامل.

لا يستطيع أحد أن ينكر مدى الأهمية الثقافية لعطاء يهود الأندلس المعربين هؤلاء، فى طليطلة بوجه خاص، من خلال ما يعرف بمدرسة المترجمين؛ فقد كانوا هم المنفذ الذى عادت عبره إلى أوروبا المعارف الكلاسيكية القديمة، وبخاصة المعارف اليونانية القديمة، بعد أن تاهت في أوروبا العصور الوسطى ، لكى تتمخض عما أطلق عليه اسم نهضة القرن الثانى عشر. ولكننى لن أتعرض هنا لهذا الموضوع، نظرًا لأنه عولج فى كتاب ماريبيل فييرو M. Fierro الذى سبقت الإشارة إليه مرارًا، علمًا بأننى أدرك جيدًا أن إغفال الظاهرة الثقافية التى رسمها يهود الأندلس فى قشتالة إبان العصور الوسطى (وخاصة فى طليطلة) يعنى تهميش واحد من أهم وأبرز المظاهر، بل وربما يكون المظهر الوحيد الذى يتعلق بتاريخ أوروبا.

قشتالة :

كان هناك فى شمال شبه الجزيرة الإيبيرية بعض الجاليات اليهودية الصغيرة والمتناثرة، قبل أن يبدأ استيلاء المسيحيين على

مناطق تابعة للمسلمين. ولم يكن إغلاق الحدود مطروحا كما حـدث بالنسبة للمستعربين، فلم تنقطع العلاقات وعمليات التبادل بين مختلف الجاليات ونظيرتها فى الجنوب، خاصة إذا وضعنا فى الاعتبـار أن سرقسطة **Zaragoza**، وتوديلا **Tudela**، وطليطلة، المتقاربة فيما بينها كانت تعد من أهم مراكز الثقافة اليهودية العربية. ولقد توفرت لـدينا البراهين التى تؤكد إجراء الاتصالات بين يهـود الجنـوب ويهـود الشمال بفضل الرحلة التى قام بها الطبيب والسفير اليهودى حـسداى ابن سـبروت **Hasday Ibn Saprut**، الذى أوفـد من قرطبـة إلـى نبرة **Navarra** وليون **León**.

ولكى نعرض الحديث عن سكان قشتالة من اليهود، يتعـين أن نرجع إلى غزو المسيحيين لطليطلة، فلم ينضم عدد كبير من الـسكان اليهود آنذاك فحسب، بل إن تلك الحملة توافقت زمنيـا مـع بدايـة نزوحهم من الأندلس، حيث تدفقت موجات من اليهود بعـد اسـتيلاء المرابطين عليها أولاً، ثم بعد غزو الموحدين لتلك المنـاطق. اتـسم حكم هاتين الدولتين الناشئتين فى بلاد البربر، والذى تأسـس علـى المنطلق الدينى، بالشدة والتعصب، وترتب على ذلك تدهور أحـوال الأقليات الدينية فى الأندلس.

احتل اليهود مناصب مهمة فى بلاط المسلمين، كالأطباء (تمامًا كما حدث فى بلاط كل من قشتالة وأراغون)، فقد كان لدور طبيـب

البلاط نفوذ كبير نظرًا لقربه من الحاكم، فغالبًا ما كان يقــوم بــدور المستشار بل وبمهام السفير (كما حدث بالنسبة لحسداى بن سبروت، طبيب عبد الرحمن الثالث، والذى أشرنا إليه ســابقًا). تلــك المهــام أتاحت لعدد منهم فرصة المشاركة فى العمل العام والسياسى فى بلاد الأندلس. وإبان حكم ملوك الطوائف كان دور الطبيب أكثــر تميــزًا، وخاصة فى سرقسطة وإشبيلية والمريَّه Almería، حيث كانت بعــض الأسر اليهودية من رجال الحاشية تضم بين أفرادها وزراء بــارزين. ويتمثل أكبر مثل فى هذا السياق فى عائلة بنى ناغريلا Nagrella فى غرناطة، التى كان يوسف هانجيد أحد أفرادها، وزيرًا قويًا فوق العــادة، وصفه أعداؤه بأنه كان أقوى من السلطان نفسه. استطاع هذا الوزير بما كان يتمتع به من سلطات أن يخمد تمردًا شعبيا عام ١٠٦٦ قتــل فيه ابن ناغريلا مع عدد كبير من يهود غرناطة. وكان منهم أيــضًا يوكوتئل بن حسن Yaqutiel Ibn Hasan من سرقسطة، الــذى مــات ميتة بشعة . ولقد كان من الأسباب التى أدت إلى فسخ عهــد الذمــة تكليف أفراد من اليهود أو المسيحيين بتطبيق مقتضيات السلطة علــى المسلمين، غير أن تلك الفتن أو حركات التمرد كانت تصطدم بموانع تمثلت فى كبار الموظفين من اليهود المسئولين فى الغالب عن المالية والضرائب، ومثل هذه الوظائف تفتقر كثيرًا إلى الشعبية. ولقد تسببت حركات التمرد ضد كبار المسئولين اليهود (وانسحب ذلك أيضًا على بقية السكان اليهود) فى موجات الهجــرة الأولــى نحــو المنــاطق

المسيحية . وقد ازداد الوضع صعوبة بتولى المرابطين زمام الحكم، حيث قاموا بفرض التزامات ضرائبية خطيرة للغاية. حدثت تلك الهجرة عندما هاجر الكاتب والمفكر الشهير موسى بن عزرا، الذى هاجر مضطرًا، وكان من أسرة ذات شأن كبير فى غرناطة، وأشار فى كتاباته إلى مدى ما انتابه من كآبة إزاء ظروف الحياة المعيشية والاجتماعية والفكرية التى واجهها بين مسيحيى الشمال(*)، الذين وصفهم بألفاظ غاية فى الخشونة.

كانت أبرز هذه الهجرات وأكثرها أهمية تلك التى حدثت فى عام ١١٤٦، وهذا التاريخ يعنى بداية عصر دولة الموحدين فى الأندلس. أمعنت هذه الدولة فى اضطهاد الأقليات الدينية، بل وصل بها الأمر إلى إجبار تلك الأقليات على اعتناق الدين الإسلامى خلال سنوات حكمها الأولى. ليس ثمة ما يؤكد من معلومات حول الظروف التى تم فيها ذلك التحول الدينى القسرى، كما لا تتوفر المعلومات التى تتحدث عن الفترة التى سادت فيها تلك الظروف (مما كان له أثر فى إلغاء عهد الذمة، ويخالف -بالتالى - نصوص الشريعة الإسلامية) فالمصادر العربية لم تتعرض لهذا الموضوع إلا بمجرد

---

(*) يرى اليهود أن معاملة المسلمين لهم كانت أفضل كثيرًا من معاملة المسيحيين . انظر "بين الإسلام والغرب" ترجمة ممدوح البستاوى، مراجعة وتقديم جمال عبد الرحمن، المشروع القومى للترجمة ، المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٥. (المراجع)

التلميح، ربما لأن إلغاء عهد الذمة كان مثارًا لجدل عميق. على أية حال فإنه سواء كان الاضطهاد أو التحول الدينى، يبدو أنهما استغرقا فترة زمنية وجيزة ، استعاد بعدها من تحول عن دينه قسرًا، حرية العودة إلى ديانته الأصلية. فقد استردت الأقليات اليهودية أوضاعها فى عهد الخلفاء الموحدين التالين ، ومن جاء بعدهم (بنو مرين فى المغرب، وبنو نصر فى الأندلس)، بل وتقلدوا مراكز مهمة فى الحياة العامة وفى البلاط. ويبدو أن الإجراءات التعسفية تلك لم تدخل فى حيز التطبيق بشكل متساو فى المناطق المختلفة التابعة للموحدين ؛ مما أرغم الفيلسوف اليهودى القرطبى الشهير يوسف بن ميمون، على اعتناق الدين الإسلامى مثلاً، وفضل أن يهاجر إلى مدينة فاس، وكانت إحدى المدن المهمة فى بلاد الموحدين. وتكاد المصادر العربية تخلو من معلومات حول هذه الأحداث، بينما تناولتها المصادر اليهودية فى صيغ أدبية (شعرية فى الغالب) يصعب التعامل معها على أنها مصادر تاريخية، ولكن ثمة حدث موثق يتمثل فى أفواج المهاجرين الذين نزحوا من الأندلس متدفقين على المناطق الإسلامية، بسبب تلك الأحداث. وقد كان أحد العاملين اليهود فى بلاط الملك ألفونسو السادس ملك قشتالة، ويدعى يهوذا بن عزرا (وكان ينتمى إلى أسرة غرناطية سبق أن ألمحنا إليها) يستقبل فى قلعته، قلعة رباح أو كلاترابا **Calatrava** اليهود الفارين من الأندلس.

تلك هى الحقبة التى بدأ فيها الأطباء ورجـال الإدارة اليهـود يكتسبون أهمية فى بلاط قشتالة. فقد كان ألفونسو الـسادس يـشجع المهاجرين من اليهود الوافدين من الأندلس ويرحب بهـم، واسـتعان بعدد منهم بعد عام من الغزو فى مهام إلى بلاط كـل مـن إشـبيلية وفالنسيا، لتحصيل الضرائب المستحقة عليهما. ومن هنا أخذ وضـع اليهود يتنامى فى إدارة شئون البلاد؛ مما أثار حفيظة البابا غريغوريو السابع Gregorio VII فدعا إلى عدم تعيين اليهود فى وظائف تقتضى التحكم فى مسيحيين. ولعل من المناصب التى اكتسبت أهمية خاصـة ذلك المنصب الذى شغله ر. يوسـف هانـاس فروزييـل R. Yosef Hanasi Ferruziel ، المعروف بـ ثديلو Cidiello، بوصـفه طبيبًـا شخصيا للملك. وهنا نركز ثانية على مدى الأهمية السياسية الكبيـرة التى تميز بها منصب الطبيب فى البلاط إبان العـصور الوسـطى. كذلك شغل ابن أخيـه ر. شـلومو فيروزييل R. Selomo Ferruziedl – وكان قد سبق أن أوفد فى مهمة دبلوماسية من قشتالة إلى أراغون Aragón – منصبًا مماثلاً.

ضم بلاط ملوك قشتالة، فى عهود ألفونسو السادس، وألفونسو السابع، وألفونسو الثامن، عددًا من اليهود اعتبارًا من أواخر القـرن الحادى عشر، وطوال القـرن الثـانى عـشر. واكتـسبت وظـائف المشرفين، وأمناء الصندوق، والقائمين على بيـت المـال والـشئون

المالية الملكية، وضعًا خاصًا وكان نظام الاستثمار المالى، والتقنيات الخاصة بالأنظمة الإدارية المتقدمة عملاً واحدًا من الناحية العملية فى ذلك الحين. ونأمل أن تفصح دراسات جديدة عن كيفية انتشار الإجراءات الإدارية الإسلامية في بقية البلدان الأوروبية عبر شبه الجزيرة، وعندئذ سوف يتسنى لنا الوقوف على مدى إسهام المشرفين اليهود فى قشتالة فى تحقيق هذا التقدم.

لا ينبغى أن يدفعنا المركز الذى حظى به رجال البلاط هؤلاء – التقدير الذى كان يتمتع به الأطباء، والمترجمون، ورجال العلم- أن يدفعنا إلى استقراء خاطئ لأوضاع الأقلية اليهودية المعاصرة فى ذلك الوقت، فكما حدث مع المدجنين **Mudéjares**، وعندما تم إقرار الامتيازات التى تمتع بها القشتاليون، والفرنجة المقيمون فى طليطلة ، بدأت مرحلة تدهور أوضاع اليهود.

كان أمن اليهود مرهونًا كلية بما يراه الملك، وبمدى ما يتمتع به ضباطه من نفوذ وتأثير، وكان وضع هؤلاء الضباط مرهونًا أيضًا بمشيئة الملك. السواد الأعظم من يهود قشتالة كان عبارة عن جماعات صغيرة من الحرفيين الحضريين ومن سكان متواضعين ، يعيشون في ظروف بدائية يحاصرها الفقر. ولما مات ألفونسو السادس عام١١٠٩، اندلعت حركة تمرد شاملة فجرها المسيحيون فى

طليطلة شملت البلدان المحيطة بمدينة بورغوس **Burgos** ومملكة ليون قاطبة، كان من أهم نتائجها تخريب ممتلكات الملك، كما تعرضت فيها الأحياء والمناطق اليهودية لعمليات السلب والنهب. ومرت سنوات طويلة حتى انتهى الملك ألفونسو السابع إلى اتفاق مع سكان المناطق التى شهدت تلك الاضطرابات، أصدر بمقتضاه مرسومًا بإسقاط جميع الغرامات وإلغاء التعويضات المستحقة لمن قُتل من اليهود. وبذلك تكون الأحياء اليهودية هى التى دفعت ثمن التمرد على السلطة الملكية.

بدت أوضح مظاهر تمييز البارزين من اليهود فى الوقت نفسه الذى فرضت فيه تشريعات متشددة ضد الأقلية اليهودية فى عهد الملك ألفونسو العاشر، الذى ازدهرت فى عهده، وتحت رعايته، ما أطلق عليها اسم مدرسة المترجمين فى طليطلة. فقد حظى العلماء اليهود فى عهده بتقدير لا مثيل له بالنسبة لحكام عصره، كما ألحق عددًا من خدمه ليشغلوا المناصب فى السياسة والإدارة المالية. كل ما ذكر يتناقض مع تشريعاته تجاه اليهود والمسلمين. ومما لاشك فيه أن التمرد الذى تزعمه المدجنون فى وادى نهر الوادى الكبير كان له دور فى تلك التشريعات . إلا أننا لا نعرف عن هذا التمرد إلا النزر اليسير . لقد بدا نفوذ الكنيسة واضحًا فى تلك التشريعات الجديدة، كما تبين أيضًا أنها تنطوى على محاولة لتخفيض الامتيازات المخولة

لليهود. وترتب على ذلك إرغام اليهود على دفع ضــريبة العــشور المستحقة على أراضيهم للكنيسة، كما فرض عليهم ارتــداء ملابــس خاصة، ووضع علامة مميزة عليها، وعمومًا فقــد قلــص ألفونــسو العاشر حقوق كل من اليهود والمسلمين المدنية، وخاصة خلال الفترة الأخيرة من حكمه.

لم تختلف علاقة الأساقفة وكبار النبلاء باليهود عــن علاقــة الملك بهم بشكل عام. فقد كان لخوان، أسقف بورغوس، ومستــشار فرناندو الثالث، علاقة بطبيب ورجال مال من اليهود، وجعل رئــيس أساقفة جمعية رهبان سانتياغو **Santiago** إدارة الأراضــي الخاصــة بالجمعية في أيد يهودية.

هناك نشاط مهنى آخر تفوق فيه اليهود، وهو المتعلق بأعمال الترجمة (الترجمــــان، واشــتقت منهــا أيــضًا كلمــة **dragoman** بالإنجليزية) فقد قاموا فى مناسبات عديدة بدور سياسى مهــم، عنــد صياغة الاتفاقيات ومعاهدات الاستسلام(*). وهناك شخص يهودى من بلدة رونــده **Ronda**، قام بدور المترجم من العربيــة أثنــاء عمليــة التفاوض التى انتهت باستسلام المدينة عام ١٤٨٥. وكان لدى آخــر

---

(*) للتعرف على دور اليهود في أعمال الترجمة وعقد الصفقات بين الممالك الإسلامية والممالــك المسيحية انظر كتاب "بين الإسلام والغرب" ترجمة ممدوح البستاوى، مراجعــة وتقديم جمــال عبد الرحمن ، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ٢٠٠٥ . (المراجع)

سلاطين غرناطة أبى عبد الله مترجمان يهوديان (إلى الإسبانية) وهما إسحاق بردونييل Ysaque Perdoniel ، وصهره يهوذا Yuda. كان بلاط ملك قشتالة المتنقل دائمًا حافلاً برجال مال ومفكرين من اليهود. وتعود رجال البلاط اليهودى على أسلوب حياة الفرسان، كما ارتبطوا بصداقات مع العاملين فى دوائر البلاد، وأيضًا شاركوا فى النزاعات التى لم تتوقف من جانب المتطلعين إلى إنعامات ملكية. وتميز طابع علاقة أقطاب اليهود بإخوانهم فى الدين بالطابع نفسه الذى اتسمت به علاقات السادة الإقطاعيين بمن دونهم من الشعب. مما أثار كثيرًا من الأحقاد والمنازعات والانقسامات الداخلية فى الأحياء اليهودية فى كل من قشتالة وأراغون.

## أراغون Aragón

كان اليهود فى أراغون أقل عددًا منهم فى قشتالة، على خلاف المدجنين ، وفى مناطق أراغون كان يتم ضم عدد من الجمعيات اليهودية كلما كان المسيحيون يستولون على المناطق الإسلامية . أهم تلك الجمعيات كانت فى توديلا Tudela وسرقسطة (حيث حصل اليهود على امتيازات بهدف تشجيعهم على الإقامة هناك) وفى قلعة أيوب Calatayud وضمت هذه المدن عددًا من الأحياء اليهودية التى ازدهرت إبان العصر الإسلامى. أضف إلى هذه المدن مدينتى لارده Lérida، وبرشلونة ، وكلاهما كانت تحت حماية التاج.

تمتع يهود أراغون بأزهى مراحل تاريخهم فى عهـد خـايمى الأول Jaim I الذى جعل من القرن الثالث عشر عصرًا ذهبيا لليهـود فى ظل التاج الأراغونى. فلما استولى هذا الملك على مدينة فالنـسيا عام ١٢٣٨ (بعـد أن تمكن المسلمون من استردادها بعد وفاة الـسيد El Cid) كان بين أحيائها حيًا يهوديا مزدحمًا بالسكان. غادر عدد من هؤلاء السكان قاصدًا مملكة غرناطة أو الشمال الإفريقى، ولكن بقـى قطاع كبير منهم فى المدينة. حاول خايمى الأول اجتذاب يهود آخرين إلى المملكة، بل وسعى إلى اجتذاب اليهود المقيمين فى شمال إفريقيا، لكى يشغلوا المناطق التى تركها المسلمون لـدى مغـادرتهم مملكـة فالنسيا . وأدى ذلك إلى توافد أفواج اليهود فى حماية التـاج، وذلـك بموجب العطايا ومنح الأراضـى والإعفـاءات والوظـائف التـى خصصها الملك لليهود القادمين، بهدف إعادة تعمير المنطقة. كـذلك اتخذ خايمى الأول إجراءات تكفل لليهود حرية العمـل بالتجـارة، كما أطلق لهم حرية التنقل فى جميع أنحاء المملكة ومن مكـان إلـى آخر، دون تحمل أى أعباء أو مكوس. ثم صرح لهم بدرو الثالث عام ١٢٨٠ بممارسة الأنشطة التجارية مـع المـسيحيين والمـسلمين . ومارس يهود أراغون وفالنسيا التجارة مع البرتغـال عبـر الطـرق البحرية وعلى متن السفن البرتغالية، كما اشتغلوا بالتجارة أيضًا مـع دول شمال إفريقيا، وخاصة تجار الأحياء اليهودية فى مدن ساغونتو

Sagunto، وشاطبة Játiva ، وكان لهؤلاء التجار معاملات تجارية مع الجزائر وتونس عن طريق وسطاء من يهود مايوركا. وامتدت حركة التجار اليهود في فالنسيا – إلى مدن تلمسان Tremececn وبجاية Bujía في الجزائر، وغالبًا ما تمت صفقات التجار عن طريق العلاقات الشخصية والعائلية بمعرفة يهود أندلسيين سبق أن أقاموا في تلك المناطق . كذلك أجرى يهود الأندلس علاقات تجارية مع تجار من جنوة مقيمين في مملكة غرناطة، وكان هؤلاء التجار يقومون بعمليات تجارية مع شمال إفريقيا وأراغون أيضًا، مما ساعدهم أيضًا على مد جسور العلاقات الثقافية. وفي أوائل القرن الرابع عشرسافر أحد مشاهير رجال الدين الأندلسيين (من مالقة بالتحديد) ويدعى جاييم بن هاشيملى بزيارة إلى الجزائر لإجراء مشاورات مع الحاخام الشهير شيمون ب. سماح، حاخام مدينة تلمسان Tremecén، وهو بدوره من أصل مايورقى، وكان لاستشاراته القانونية وزنها في منطقة البحر المتوسط كلها.

كانت مهنة الطب، ومجال الإدارة، على رأس النشاط المهنى لدى يهود أراغون، شأنهم في ذلك شأن يهود قشتالة . وقد شغل هؤلاء في مجال الإدارة وظائف خاصة بتقدير الضرائب وتحصيلها. كذلك تقلدوا المناصب التى تتطلب الإلمام باللغة العربية، وبخاصة وظيفة "الترجمان"، أى وظائف المترجمين والسفراء لدى المناطق

الإسلامية، والقائمين بالتفاوض للوصول إلى اتفاقيات ومعاهدات تجارية أو سياسية مع المناطق الإسلامية المجاورة، إما مع مملكة غرناطة وإما مع منطقة الساحل الجنوبى للبحر المتوسط. وكان لخايمى الأول Jaime I نفسه المترجم باهييل Bahiel القسطنطينى، الذى قام بدور المترجم والوسيط فى مسيرة الاستيلاء على ميورقه عام ١٢٢٩، وفى عملية الاستيلاء على فالنسيا عام ١٢٣٨م، كما أجرى مفاوضات مع حكام مدينة شاطبة حول استسلامها أثناء الحصار الذى فرضه الأراغونيون عليها. كذلك تولى أشتروك بونسنيور Astruc Bonsenyor هو وأولاده بون دافيد Bondavid ويافوده Yafuda مهمة التفاوض بشأن استسلام مدينة إيلشىElche، ومدينة مرسية أما الملك بدور الثالث، فقد كان فى بلاطه يهودى من مدينة فالنسيا يدعى صمويل بن مناسى Abenmanasse وهو الذى رافق الملك فى حملاته على تونس وصقلية. هذا وقد أوفد ابن داقيد إلى مصر عام ١٢٨٩ سفيرًا لملك أراغون ألفونسو(*) Alfonso El Liberal.

هناك يهود أيضًا اشتغلوا بشئون المال والإدارة العامة، كذلك

---

(*) العلاقات بين إسبانيا المسيحية ومصر فى عصورها المختلفة من الموضوعات المهمة التى ينبغى القيام بدراستها. هناك دراسات بالفعل عن علاقة مصر المملوكية بمملكة أراغون قبيل سقوط غرناطة الإسلامية. (المراجع)

تولى موظفون يهود شئون جمعيات المسلمين فى تلك المناطق من المملكة، والتى لم يكن سكانها يتحدثون سوى اللغة العربية . وفى عام ١٢٨٣ حدثت انعطافة سياسية من جانب التاج الأراغونى إزاء اليهود، وصلت إلى إقامة حواجز شديدة بين التجمعات، وبصفة خاصة ما تقرر بشأن منع اليهود من تولى مهام الوظائف العامة.

وأخيرًا هناك ظاهرة تجدر الإشارة إليها وإن كانت هامشية ، فثمة معلومات موثقة تتحدث عن إقبال تلقائى من قبل اليهود على اعتناق الإسلام فى غضون القرن الثالث عشر وفى مطلع القرن الرابع عشر فى أنحاء مملكة أراغون، ووصل الأمر إلى حد المشكلة لدى السلطات المسيحية فى المملكة. ومن المحتمل أن يكون هؤلاء من اليهود الذين قدموا من الأندلس ممن كانوا قد بقوا فى المناطق المسيحية أو ممن هاجروا إلى هناك نتيجة للامتيازات والعطايا التى منحها خايمى الأول، ثم آثروا التكيف مع طوائف المدجنين نظرًا لتشبعهم بالثقافة العربية الإسلامية. وهذه الظاهرة مشابهة لما سبق أن ألمحنا إليه عند حديثنا عن المستعربين الجدد.

تبين هذه الأحداث مدى تغير نسبة العناصر المختلفة التى تدخل فى تكوين هوية الفرد أو الجماعة من عناصر دينية وثقافية ولغوية، وذلك وفقًا للظروف التى تحيط به عندما يكون فى وضع حدودى دائم.

لقد أتاحت ظروف النظام والمجتمع القشتالى الخاصة الفرصة أمام اليهود لكى يتولوا بعض المناصب المهمة خلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر، بينما كان ذلك مرفوضًا فى مملكة أراغون المجاورة اعتبارًا من أواخر القرن الثالث عشر. ففى قشتالة حدث امتزاج بين تقاليد البلاط لدى أمراء الأندلس، وطبيعة النظام الزراعى الإقطاعى، وبين مبادئ الورع المسيحية، ومن هنا كان التشابك والتناقض فى كثير من الأوضاع التى نعرض لها. ولكن، وعلى أية حال، وهذا ما سوف نستقرئه فى الفصل التالى، فإن المسيحية أصبحت هى الديانة السائدة خلال القرن الثالث عشر، وتأكد رسوخها أمام الإسلام واليهودية، وقد تم استبعاد هاتين الديانتين بكل الوسائل بدءًا من التشريعات وحتى الصدام المسلح. وباتساع محيط العالم المسيحى اتسعت آفاقه، واتسع مجال اتصاله بالإسلام، وهو ما تجلى فى عدة مجالات، منها ترجمة مراجع علمية وفلسفية، قام اليهود بدور كبير فيها. وخلال القرن الثالث عشر قام ممثلون للكنيسة بتنظيم حلقات جدل دينى مع ممثلين للطوائف اليهودية، فرضوا عليهم أثناءها حضور الخطب والمواعظ الدينية. وقد أدت الأوامر التى صدرت إلى القيام بحملات لتنصير أعداد كبيرة من اليهود والمسلمين، مما دعا إلى إنشاء أقسام لدراسة اللغتين العربية والعبرية وتعليمهما. وسوف تأخذ هذه المسيرة فى الانعطاف نحو

الأصولية، نتيجة لفشل عمليات التنصير، إلى أن بلغت الأزمة ذروتها فى القرن الرابع عشر، كما تمثلت فى الحمـــلات التبــشيرية التـــى تزعمها بيثنتـــى فيريـــر Vicente Ferrer، والتـــى أدت إلـــى تفجـــر اضطرابات خطيرة، تعرضت فيها الأحياء اليهودية للسلب والنهـــب، كما ارتكبت فيها المذابح. وهنا اضطر عدد كبير مـــن اليهـــود إلـــى التنصر.

## (٣)

### المدجـنون

ظهر المدجنون فى العصور الوسطى المتقدمة، وقد اختلطوا بالسكان المسيحيين المعرَّبين بصورة يصعب فيها التمييز بينهم. والمدجنون هم المسلمون الذين بقوا فى المناطق المسيحية التى استولى المسيحيون عليها، أو ممن وفدوا إلى مناطق مسيحية واستقروا بها إما باعتبارهم أسرى حرب، وإما بصفتهم مهاجرين وفدوا من جنوب شبه الجزيرة، بسبب الاضطرابات السياسية العميقة هناك، أو هربًا من ويلات الحروب الأهلية، أو نتيجة للظروف الاقتصادية القاسية. أقام المدجنون فى المناطق المسيحية فى نطاق تجمعات مختلفة وفق تنظيم خاص بهم، تحكمهم سلطاتهم وقانونهم الخاص. ومر المدجنون على مر العصور بظروف تعرضوا فيها لعمليات اضطهاد متصاعدة استهدفت أحد أمرين إمـــا الاندمـــاج وإما الرحيل.

والمدجنون هم أول نواة مهمة من السكان المقيمين فى مناطق لا تحكمها سلطة سياسية مسلمة، وهذا ما يضفى اهتمامًا خاصا على

أساليب تنظيمهم، وطرق معيشتهم داخل التجمعات الخـــاصة بهـم. ولقد استخدمنا لفظ " الجماعـــة "aljama للإشـــارة إلـــى الفـــريقين. والجماعة هى المجلس المشكل من كبار طائفة المدجنين (كمــا هــو الحال بالنسبة لليهود) باعتبارها المؤســسة المكلفــة بــإدارة شـئون الجماعة، والمسئولة عن تنفيــذ القـــانون الإســـلامى، إضـــافة إلـــى الاضطلاع بمهمة الاتـــصال بالـــسلطات المـــسيحية. وكانـــت تلـــك "الجماعات" مجرد رمز لبقـــاء الإسلام فى المناطق المسيحية، وقامت بأداء بعض المهام التى كانت تمارسها السلطة السياسية فى المنـــاطق الإسلامية، مثال ذلك المحافظة على العادات والقوانين، والسهر فـــى سبيل الحفاظ على العقيدة، والالتزام بتنفيذ التعاليم الدينيـــة، وكـــذلك العمل على نقل المعارف. ويطلق لفظ "جماعة" أيضًا علـــى الطائفـــة بأكملها، وغالبًا ما ورد لفظ "جماعة" فى المراجـــع والوثـــائق مـــثلاً ("جماعة" اليهود، أو "جماعة" المسلمين) على أنه مرادف لكلمة حـــى أو حارة، كحارة اليهود، أو حى المسلمين.

ذكرنا أن المدجنين هم أول جمـــاعة مهمة وباستثناء صـــقلية، هم الطائفة الوحيدة حتى العصـــور الحديثة التى عاشت فى منطقـــة غير إسلامية. لذلك اصـــطدمت بمشاكل تمس وضـــعها الإســـلامى، الأمر الذى أدى إلى إصدار مجموعة من الفتاوى والرؤى القانونيـــة، امتد العمل ببعضها بناءً على طلب بعض الجماعات. علـــى ســـبيل

المثال : هل يجوز أن يظل المرء مسلمًا وهو يعيش فى بلاد الكفار، أى دار الحرب؟ لقد عادت مثل تلك الفتاوى تحظى باهتمام غير مألوف تجاه ظاهرة الإسلام الأوروبى الجديد الذى يُرى فى المدجنين مثلاً.

قسَّم الفقيه ابن ربيع، وهو أحد فقهاء القرن الرابع عشر، المدجنين إلى ثلاث فئات : أقلية مبعثرة، استقرت فى بلد مسيحى، وفئة تركزت رغم أقليتها، فى تجمعات داخل أحياء خاصة بها، فى معزل عن الكفار، أما الفئة الثالثة فهى أغلبية أقامت فى بلد يسيطر المسيحيون على حصونه للتحكم عسكريا فى البلاد.. ويرى الفقيه المذكور أن أسوأ هذه الفئات الثلاث حالاً هى الفئة الأولى (وأنه كان يتعين على من يعيش فى هذه الظروف أن يهاجر مهما كلفه الأمر)، وأن أفضلها حالاً هى الفئة الثالثة. وسوف يتبين لنا وجود الفئات الثلاث فى مختلف المناطق التى عاش فيها المدجنون، كما سيتضح أن خيوط الهجرة لم تنقطع طوال تلك الفترة، وخاصة فى أواخر العصور الوسطى.

خلت وثائق العصور الوسطى من كلمة مدجن **Mudéjar**، حتى منتصف القرن الخامس عشر، فكلمة **Mudéjar** بالإسبانية تقابلها **Mudeixar** بلغة قطالونية أو **Mudéjar**، وهى مشتقة من الكلمة

العربية مُدجَّن، أى "الخاضع"، وهذا هو المعنى الوارد فى المصادر العربية. وأطلق اسم مورو **Moro** على المسلم قبل حلول القرن الخامس عشر، و**Moro** بالإسبانية، و **Mauri** باللاتينية، وأثناء العصور الوسطى وما بعدها كانت كلمة **Sarrahin**، أو **Sarrins** أو **Sarracenos** تعادل كلمة مسلمين وذلك فى المصادر القطالونية، وعرفوا فى مصادر أراغون **Aragon**، على أنهم **Moro De Paz** ، أى مسلمو السلام، وذلك للتمييز بينهم وبين من لم يندمج منهم فى المجتمع المسيحى بموجب اتفاقات أبرمت باعتبارهم أسرى حرب أو عبيد.

من الصعب الإلمام بمجمل قضية المدجنين. فهم لم يتطوروا بمرور الزمن فحسب، بل إنهم اكتسبوا خصائص متنوعة للغاية طبقًا لظروف الممالك التى عاشوا فيها، بسبب اختلاف ظروف العمليات العسكرية، وخاصة بسبب التباين التشريعى فى العصور الوسطى، أو على ضوء خصوصية مختلف المزايا المحلية، أو نتيجة للامتيازات التى تمنحها مختلف المدن. إن الاختلافات كبيرة أيضًا فى مختلف المناطق، فى نواح عدة تبدأ من الاختلافات الديمغرافية، وحتى مستوى الإلمام بمستوى الثقافة العربية الإسلامية لدى المدجنين فى المناطق المختلفة. فعلى سبيل المثال لم تتجاوز نسبة المدجنين فى قشتالة خمسة بالمائة من إجمالى السكان فى نهاية العصور الوسطى،

وكانت في أراغون ٢٠ بالمائة. أيضًا أخذ استخدام اللغة العربية يتراجع في كل من قشتالة وأراغون، إذ اقتصر الاستخدام في البداية على الجوانب القانونية والدينية، ثم انحصر في نطاق محدود للغاية، حتى حلت اللغة الألخميادو أو الأعجمية Aljamia (كتابة اللغة الإسبانية بحروف عربية) فيما بعد محل اللغة العربية، وفي الوقت نفسه ظل استخدام العربية قائمًا في غرناطة وفالنسيا، تحريريا وشفويا، إلى أن طرد الموريسكيون خلال الفترة من عام ١٦١٠ حتى عام ١٦١٤.

كان وضع المدجنين يأخذ في التدهور في أنحاء البلاد جميعها، وبلغ التدهور ذروته على أثر صدور مراسيم ملكية تقضي بالتحول الإجباري إلى المسيحية. وبالتالي أصبح المدجنون مسيحيين رسميا وإن كان قطاع كبير منهم كان يتظاهر بهذا التحول، وأطلق عليهم عندئذ اسم الموريسكيين أي أن الاختلاف بين المدجنين والموريسكيين إنما هو اختلاف قانوني سنه المسيحيون، كان له تأثير جوهري على مدى تقدير الجهات الرسمية لديانة الموريسكيين. وقد اختلفت تواريخ ذلك التحول الإجباري بين مملكة وأخرى : في المناطق التابعة لتاج قشتالة عام ١٥٢٠، وفي نابارا Navarra عام ١٥١٢، وفي كل من أراغون وفالنسيا وقطالونيا عام ١٥٢٦.

جرت العادة عمومًا، على تقسيم دراسة أوضاع المدجنين إلى أربعة أقسام : قشتاليين، وأراغونيين، وفالنسيين، وغرناطيين. وسوف أتناولهم هنا فى إطار كتلتين: كتلة المناطق التابعة لتاج قشتالة، وكتلة المناطق الخاضعة لتاج أراغون.

## مملكة قشتالة :

كان المدجنون فى قشتالة مجرد أقلية محدودة ومتفرقة، ومهمشة اجتماعيا، وفقيرة ثقافيا (نتيجة لنزوح النخبة وطبقة المثقفين منهم إلى المناطق الإسلامية فى الجنوب)، كما كانت أصولهم غير مؤكدة، لدرجة أن بعض المؤرخين يشككون فى إسهامهم فى نقل الثقافة الأندلسية. ويرجع انخفاض عدد المدجنين فى قشتالة جزئيا، إلى ظروف العمليات العسكرية القشتالية، وما كان لها من دور فى إصدار التشريعات الخاصة بهم. واقترن صدور تشريعات قشتالة بشأن المدجنين مع التشريعات الخاصة باليهود إلى حد كبير، وتطورتا بشكل متواز. أما المعلومات المتوفرة عن كلتا الطائفتين، فهى نادرة ومبعثرة للغاية طوال فترة ما قبل الاستيلاء على طليطلة عام ١٠٨٥. وإنه من الصعوبة بمكان أن نعد صورة كاملة للحياة الخاصة بكلتا الطائفتين حتى نهاية العصور الوسطى، حيث تيسرت الوثائق بوفرة. ولعل أكثر المعلومات وفرة تلك التى استخلصت من التشريعات،

سواء كانت صادرة عن السلطات الكنسية أو البلاط أو السلطات المحلية. ولكن هذه الوثائق وفرت معلومات نظرية لا تتفق دائمًا مع ما توفر لنا من معلومات استخلصت من مصادر أخرى، حول ممارساتهم وظروف حياتهم اليومية. ولما كانت التشريعات مشتركة بصورة عامة بالنسبة للمدجنين واليهود، فلا ينبغي أن نتجاهل الاختلافات الكبيرة بين كلتا الأقليتين.

لاشك فى أن عام ١٠٨٥م يعتبر عامًا محوريا. فقد ترتب على الاستيلاء على مملكة طليطلة ضم مناطق ذات كثافة سكانية عالية سواء من المسلمين أو اليهود أو المستعربين إلى الأراضي الإسبانية لأول مرة. وكان لهذا الحدث أهميته سواء على الوضع السكانى لهذه الأقليات أو على التشريعات التى صدرت بشأنها.

نصت وثيقة استسلام طليطلة على ضمان حرية انتقال المسلمين الراغبين فى مغادرة المدينة، كما نصت على حماية أرواح من يرغب فى البقاء وأموالهم وممتلكاتهم، بما فى ذلك ملكية المساجد. ونصت فقط على أن يتم تسليم الأماكن الحصينة للمسيحيين. إلا أن هذه الشروط لم تنفذ من الناحية العملية، ففى أعقاب الغزوة المسيحية تم تعيين راهب من دير كلونى Cluny كبيرًا لأساقفة طليطلة. وكان هذا القس ممن شاركوا فى مجمع كليرمونت

Clermont الدينى، حيث نذر بأن يشارك فى الحروب الصليبية فـى الأراضى المقدسة، ثم أعفاه البابا من الوفاء بنذره لكى يـشترك فـى الحرب ضد المسلمين فى شبه الجزيرة الإيبيرية. ولمـا كـان هـذا الأسقف من المقربين إلى الملكة تحين فرصة غيـاب الملـك، وقـام بمصادرة المسجد الكبير فى طليطلـة عـام ١١٠٢، وحولـه إلـى كاتدرائية. كان هذا العام ١١٠٢ -إضافة إلى الموافقة على امتيازات القشتاليين والفرنسيين عام ١١١٨ - بادرة انتكاسة للائحة القانونيـة الخاصة بالمدجنين القتشاليين. فقد أرغم المـسلمون علـى مغـادرة المدينة تدريجيا على مدى جيلين؛ فاتجه كثير منهم إلى مناطق شمال قشتالة. واعتنق الآخرون المسيحية، ثم اندمجوا مع سكان طليطلة من المستعربين، والمعربين فى الأعماق، حيث نما بينهم تآلف ثقافى.

سوف أحاول، فيما يلى ، الإجابة عن الأسـئلة التاليـة حـول المدجنين القشتاليين: من أين جاءوا ؟ وكم كان عددهم؟ وأين كـانوا يعيشون؟ لقد أشرت فيما سبق ، فى معرض الحديث عن المستعربين، إلى بعض الآراء التى تدور حول أصول كلتا الأقليتين (اللتين تشكلان جزءًا من السكان المسلمين الذين مكثوا فى أماكنهم على الرغم من تغيير الحدود)، وربما لا تلقى هذه الآراء إجماعًا على إقرارها أو قبولهـا. يرى لاديرو كيسادا **Ladero Quesada** وهـو مـن كبـار البـاحثين المعنيين بالمدجنين فى مملكة قشتالة، أنه من غير المعقول أن يكـون

المدجنون بقايا من المسلمين الذين ظلوا فى منـــاطقهم بعـــد الغــزو. ولكنه يؤكد عكس ذلك، ويقول إنهم من هجرات حديثة نسبيا، ومـــن المستحيل أن ترجع إلى القرن الثالث عشر، وأن السواد الأعظم منهم انحدر من موجات الهجرة، من سكان مملكة طليطلة القديمة.

ويذهب مؤرخون آخرون إلى ما هو أبعد مـــن ذلـــك، مثـــل مولينات Molinat، حيث يؤكدون أنه لم يبق أحد من المـــسلمين فـــى مدينة طليطلة بعد الاستيلاء عليها، وأن من أعاد تعميرها بعد ذلك هم المدجنون الذين جاءوا من منطقة وادى نهر الوادى الكبير على أثـــر الغزوات التى شهدها القرن الثالث عشر. إذن، مازال الأمر يحتـــاج إلى دراسات كثيرة حتى يمكن الاستقرار على رأى جدير بالتصديق.

أما فى قشتالة – كما سوف يتبين لنا – على عكس ما هو عليه الحال فى أراغون، فقد كانت الأحياء الإسلامية تتركز، بصور تكـــاد تكون عامة، فى النقاط العمرانية المهمة، حيث كان يسهل على أى مهنى مدجن أن يستوطن، بل كان يحظى بموافقة المجالس المحليـــة، ولعل أكثر الحالات توثيقًا هو ما يتعلق بمدينة أبيلا Ávila التى ضمت بين سكانها أهم تجمع سكانى من المسلمين فى مناطق شمالى قشتالة، إلا أن وجود المدجنين هناك، لم يكن موثقًا حتى القرن الثانى عـــشر، بعد مرور قرن من استيلاء المسيحيين على المدينة. وتكاد تكون هذه المدينة نموذجًا بالنسبة لموضوعنا . فى أواخر العـــصور الوســـطى

كانت تضم حيا يهوديا يستوعب نحو ألفى يهودى، ونحو ألف وثلاثمائة مدجن، بينما لا يكاد عدد السكان المسيحيين يتجاوز ثلاثة آلاف نسمة.

أما بالنسبة للعدد والتوزيع الجغرافى، سواء كان ذلك بالنسبة للمسلمين أو اليهود، فيمكن الاستعانة بكشوف توزيع الضرائب الإضافية، والتى كان يتعين على كلتا الجاليتين أو الطائفتين الوفاء بتسديدها. تلك الضرائب كانت: الضريبة السنوية، وضريبة المنفعة ونصف المنفعة. أما الضريبة السنوية، أو الأساسية، فهى عبارة عن مبلغ سنوى يلتزم كل مسلم أو يهودى بتسديده تعبيرًا عن الاعتراف بالسيادة الملكية، وبالحماية الخاصة التى يكفلها لهم الملك. أما ضريبة المنفعة ونصف المنفعة، فكان توزيعها كسابقتها طبقًا للوائح والإجراءات الضريبية، وكانت عبارة عن مبالغ غير عادية. وانتهى الأمر بها إلى تحويلها إلى ضريبة سنوية أيضًا. ومن هذا يتضح أن المسلمين واليهود كانوا يسددون الضرائب الأخرى التى كان يدفعها أى ممول ضرائبى قشتالى، بما فى ذلك ضريبة العشور التى كانت تسدد للكنيسة.

ويتبين من التقسيم الضرائبى خلال الفترة ١٢٩٣-١٢٩٤ أن المدجنين تحملوا مبالغ كبيرة سددت للأبرشيات فى كل من :

بورغوس Burgos وفالنسيا Palencia وأبيلا Avila وسيغوبيا Segovia، وهذا ما يعكس وجود عدد كبير من الأحياء التي يقطنها المسلمون.

فى عهد الملك إنريكى Enrique الثالث، تم تثبيت المبالغ المفروضة على كل حى من أحياء المسلمين بالنسبة لضريبة الرءوس، وربما تكون هذه هى آخر مرة. ولكن أهم الوثائق حقيقة ترجع إلى ما بعد تلك الفترة، وهى خاصة بضريبة "المنفعة ونصف المنفعة" وقد قام لاديرو كيسادا Ladero بمتابعة هذه الضريبة عن أعوام ١٤٦٢-١٤٦٤، ١٥٠١، وكذلك الضرائب الخاصة بعام ١٤٩٥، ١٥٠١. وطبقًا لتلك الأخيرة، تبين وجود أحياء للمسلمين فى أبيلا Ávila، وأريبالو Arévalo ، وبلد الوليد Valladolid، وكانت هذه هى أكبر أحياء المسلمين فى المنطقة، تليها أحياء أخرى متوسطة فى بورغوس، وباركو دى أبيلا Barco De Ávila، وبييدراهيتا Piedrahita. وأخيرًا كانت هناك أحياء يهودية صغيرة فى كاريون Carrion، ومدينة الكامبو Medina Del Campo، وفالنسيا وساهاغون Sahagon، وسيبولبيده Sepúlveda. وفى المنطقة الشرقية للإقليم، على طول الحدود مع مملكة أراغون، كان الإشغال السكانى من جانب المدجنين أقل كثافة، ولكن هناك بعض الأحياء الإسلامية المهمة، أكبرها حى أغريدا Agreda، يتلوه حى أرندا دى دويرو Aranda De

Duero، وأغـــيلار دى ثربيــــرا Aguilar De Cervera، وســــربيره Servera، ومدينة سالم Medina Celi، وبنياراده Peñarada، وســـان اســـتيبان دى غوميـــث San estivan De Gomes، وأركـــوس Arcos ومولينا دى أراغون Molina De Aragon، وسيغوينثا Siguenza.

ويمكن إثراء معلوماتنا عن المدجنين فى هذه المناطق أيـــضًا عن طريق الشهادات التى توفرت لدينا حول الموريسكيين فى القـــرن السادس عشر ، منها سجل الحالة المدنية الخاص بالمسيحيين الجـــدد فى سيغوبيا Segovia، لعام ١٥١٠ (أى بعد مرور ثمانى سنوات على صدور المرسوم الذى يقضى بتحـــول المـــدجنين بمملكـــة قـــشتالة الإجبارى إلى المسيحية) وأثناء تلك الفترة ظهرت مشكلة التمييز بين الموريسكيين القدامى، أى المنحدرين من ســـلالة مـــن تحـــول مـــن المدجنين المقيمين سلفًا بالمملكة، وبين المدجنين الغرناطيين، الـــذين أخـــذوا يفدون بأعـــداد قليلـــة بعد الاســـتيلاء على مملكة غرناطة، ثم أخذت أعدادهم فى الزيادة حتى أصبح تدفقهم فـــى فـــرق كبيـــرة اعتبارًا من اندلاع حرب البُشرات Alpujarras خـــلال الفتـــرة مـــن ١٥٦٨إلى ١٥٧٠. وأحدث هذا التدفق الغرناطى تحولاً فى الوضـــع السكانى السابق، كما تسبب فى تفجر منازعات أخذت تتصاعد بشكل ملحوظ، ويمكن القول هنا إن المشكلة فى ذلك كانت غرناطية أكثـــر منها موريسكية. وعلى أية حال، فإن هذا العامل يـــدفعنا إلـــى عـــدم

الاستعانة بمختلف سجلات الحالة المدنية الخاصة بموريسكيي النصف الثانى من القرن السادس عشر، ولا أن نأخذ بأعداد المطرودين، فيما عدا الحالات التى يحكيها الموريسكيون القدامى، والغرناطيون، كل على حدة.

لنستعرض الآن جانبًا من الشروط القانونية التى طوقت كلاً من المدجنين واليهود، فقد سادت بينهما التشريعات القانونية تقريبًا، كما سبق أن ذكرنا. هناك علامة ثابتة وجوهرية ميزت هاتين الطائفتين، تمثلت فى اعتبار كل منهما جسمًا غريبًا فى المجتمع القشتالى الذى تحدثنا عنه، أيضًا كانت التشريعات الخاصة بهما متغيرة، سواء بالنسبة للموقع الجغرافى، أو بالنسبة للزمن؛ فقد تغير عدد لا يحصى من القرارات التى تمسهما، بموجب قوانين محلية، وبناء على قرارات أصدرتها المجالس، وبموجب امتيازات ملكية.

وعمومًا، نستطيع أن نؤكد أن أزهى فترة شهدتها الأقليات تقع من القرن التاسع إلى القرن الحادى عشر؛ ففى تلك الفترة كانت هناك حاجة إلى هذه الأقليات سواء فيما يتعلق بالجانب السكانى أو بجانب العمل. ثم شهدت تدهورًا كبيرًا فى النصف الثانى من القرن الثانى عشر، ثم تدهورت أحوالها مرة أخرى خلال السنوات الأولى من القرن الخامس عشر، وخاصة الفترة من ١٤٠٨ إلى١٤١٢. أيضًا

كانت أزهى عصور الأقليات فى الأندلس، خلال الفترة مـــن القـــرن التاسع حتى القرن الحادى عشر، ثم بدأ التدهور مع القـــرن الثـــانى عشر. فقد تزامن ظهور التشدد الدينى الذى شهدته المنطقتـــان، مـــن جراء الإصلاح الكولونى Cluny فى الشمال، والإصلاح الذى طبقـــه الموحدون فى الجنوب.

لمس المدجنون توازنًا فى وضعهم بصفة عامة فى اتفاقيـــات الاستسلام ومن خلال التشريعات الملكية، اعتبارًا من عهد ألفونـــسو العاشر، كما كفل التاج تأمين حياة المسلمين الأحرار، مع احتفـــاظهم بقوانينهم وتقاليدهم، على ألا يمارســـوا شـــعائرهم الدينيـــة علانيـــة، وألا يهاجموا الديانة المسيحية. ذلك التأمين الملكى لم ينطـــو بالفعـــل على مساواة المدجن الحر بالمسيحى فى النـــواحى القانونيـــة . فقـــد لاحظنا فى أغلب القوانين واللوائح البلدية أوضاعًا مجحفة لكل مـــن اليهود والمسلمين فيما يتعلق بجرائم العنف الجسدى، ســـواء كـــانوا معتدين أو ضحايا، وكذلك فيما يتعلق بإمكانية الإدلاء بالشهادة أمـــام القضـاء.

حظر عليهم ألفونسو الحادى عشر القيـــام بمهـــام التحـــصيل، والإشراف، والتأجير، والتحقيق، فيما يتعلق بالأموال الملكية. وتأكـــد خلال الدورة البرلمانيـــة ١٣٨٥-١٣٨٩، علـــى ألا يـــشغل هـــؤلاء وظائف الضباط أو المشرفين فى حاشية الملك أو مع النبلاء، وامتـــد

هذا الحظر حتى يناير ١٤٦٥ ليشمل الوظائف العامة كلها. لا شك أن ذلك الحظر الذى شمل كلاً من اليهود والمسلمين، كان يستهدف اليهود فى أول الأمر، لأنهم هم الذين كانوا يتولون الوظائف العمومية المهمة، ومع ذلك ظلوا يمارسونها على الرغم من تلك التعليمات.

وفيما يتعلق بقضايا أخرى، كونت الطوائف الكبيرة من اليهود والمدجنين جماعة aljama ، وسمح للمجموعات الأصغر فى الأماكن المجاورة بالاشتراك فيها. وقد شكلت هذه الجماعة للنظر فى مختلف الشئون المتعلقة بالإدارة الداخلية أو التصريح بممارسة الشعائر الدينية . وكان لتلك الجماعات قضاتهم الذين يضطلعون بحل النزاعات المدنية الداخلية. وكان على رأس كل تنظيم قضائى "شيخ كبير" كما سمى فى عهد ألفونسو العاشر، وسمى فى عهد هنرى الثانى بكبير القضاة. وهناك أمثلة كثيرة لقرارات أصدرها ملوك القرن الخامس عشر بتعيين كبار القضاة.

فرضت قيود معينة على اختصاصات قضاة المدجنين، منها ما هو دائم، ومنها ما هو عرضى، ومن أمثلة الأولى، دخول القضايا الجنائية ضمن اختصاصات القضاة المسيحيين العاديين، وأما القضايا المدنية المختلطة فكان يفصل فيها جزء من المسيحيين وجزء آخر من المسلمين.

من المعروف أن تصريف الشئون الخاصة بالقانون الإسلامى فى مدينة بورغوس Burgos مثلاً كانت فى أيدٍ مسيحية، على الأقل منذ عهد سانشو Sancho الرابع، الذى منح امتيازًا فى عام ١٢٩٣ جاء فيه : "تدخل النزاعات التى تقع بين المسلمين المقيمين فى مدينة بورغوس وما فى حوزتها، فى نطاق اختصاصات قاضى هذه المدينة". وفى عام ١٢٩٥ منح فرناندو الرابع مجلس بورغوس الصلاحية لتعيين أربعة قضاة سنويا، يتم اختيارهم من بين سكان المدينة، وذلك للنظر فى النزاعات بين المسيحيين وبين المسلمين واليهود.

ارتكز تطبيق القانون الإسلامى خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر على نصوص وخلاصات شرعية كتبها فقهاء مدجنون بالإسبانية؛ نظرًا لأن السواد الأعظم من بنى جلدتهم فقدوا اللغة العربية، وكان القضاة المسيحيون العاديون فى حاجة إلى معرفة التشريع الإسلامى. وقد وصلت إلى أيدينا بعض هذه المؤلفات، وخاصة التى كُتبت حوالى عام ١٤٦٤ وكتبها فقيه شهير فى جماعة سيغوبيا يدعى عيسى بن جابر : "مختصر السنة، أو مجموعة فى الأوامر والنواهى فى الشرع والسنة" Brevario Cunni o Suma De Principales Mandamientos Y Develamientos De La Ley Y Cuna.

يقول الكاتب في مقدمة الكتاب إنه وضعه بالإسبانية حتى يمكن استيعاب ما به "لأن المسلمين في قشتالة، تحت ظروف القهر والإكراه، وثقل الأعباء الضرائبية والإجهاد والعمل، فقدوا ثرواتهم والمدارس العربية"، وإن مؤلَّفه عبارة عن موجز للوجوه الأساسية "فالكتب الكبيرة من عمل أولئك الذين يمتلكون ما يضمن لهم أمان العيش، وهذا ما لم يتوفر لدى مسلمي قشتالة". ويمكننا أن نقف في فترة عيسى بن جابر على أصول نوع من الأدب الإسلامي المحلي، كتب الجانب الأكبر منه باللغة الألخميادية، أي بلغة إسبانية كتبت بحروف عربية. ربما أراد هذا الفقيه الشهير أن يؤسس إسلام المدجنين، لكي يجعل من أتباعه عنصرًا يحظى بالقبول لدى مجتمع الأغلبية وسافر إلى سكسونيا، وهناك اشترك مع خوان دي سيغوبيا في ترجمة القرآن إلى اللغة الإسبانية. ويؤكد عيسى في مقدمة كتاب مختصر السنة نفسه، والذي أشرنا إليه، أنه قام بالترجمة حتى يتسنى للإسبان جميعهم قراءته والإلمام به وفهمه، ودرء الأفكار الزائفة التي أثيرت حوله.

صورة أخرى من صور الاهتمام الذي أحيته التوجيهات الإسلامية خلال الفترة التي كان يسيطر فيها المسيحيون سياسيا على رعاياهم من المسلمين، هو كتاب السنة والشريعة **Cuna Xara**، وهو عبارة عن ترجمة من العربية إلى لغة قطالونية، تمت في أواخر القرن الرابع عشر، ويتناول المبادئ القانونية والدينية الإسلامية.

المعلومات المتوفرة لدينا حول التنظيم الداخلي للجماعة قليلـــة. كان الفقيه أهم شخصياتها، فهو الخبير بالقانون، وهو المكلف بالمهام الدينية والتعليمية . وقد كان الفقهاء هم وحدهم الملمين باللغة العربية بين أفراد الجماعة (فى الغالب). بالاطلاع على وثيقـــة ترجـــع إلـــى أواخر القرن الخامس عشر تبين أنه كان في أبيلا Ávila ثلاثة فقهاء، كل واحد منهم في مسجده، وقد تناولت هذه الوثيقـــة مناقـــشة دارت بينهم وبين جماعات كل من بورغوس، وبلد الوليـــد. وظهـــر فـــى بورغوس في ذلك الحين فقيه يوقع على إحـــدى الوثـــائق المحـــررة باللغة العربية، وخلال الفترة من ١٤٥٩ إلى١٤٦٠ نشر فقيه مدينـــة سالم عددًا من المحررات الخاصة بتوزيع المواريث باللغـــة العربيـــة أيضًا. وفى مدينة مولينا Molina قدم الفقيه يوسى دى فاسيه Yuce De Vacia للمحاكمة أمام محاكم التفتيش بسبب قيامه بنـــشاط تبـــشيرى، وذلك في عام ١٤٩٥ . كل هذا يوضح أن الفقهاء كانوا أصحاب كل من السلطة الدينية والأدبية، وفـــيهم تمثلـــت القـــدوة الروحيـــة فـــى الجماعات، وكانوا فى الوقت نفسه القائمين بأعمال الكتبة والموثقين، كما يوضح من جهة أخرى أيضًا أن اللغة العربية كانت مـــستخدمة، وإن كان على نطاق ضيق، وأن اســـتعمالها اقتـــصر آنـــذاك علـــى الجوانب الدينية والقانونية حتى أواخر القرن الخامس عشر.

كان تنظيم الجماعات اليهودية مشابهًا للإسلامية : فى المقدمة كان الكهول أو المتقدمون في السن، ثم المقدم، فالقـــضاة أو الـــديانيم

Dayynim، وهذا الأخير يعادل منصب القاضي في المجلس البلـــدى ، لا يهم أن يكون ضليعًا فى تعاليم التلمود ولكن يتعين عليه أن يرجـــع إلى الحاخامات. وفيما يبـــدو أن الملك كان صاحب الحق فى تعيـــين الحاخامات في جمعيات معينة، وكان الحاخام يتمتع بـــسلطات دينيـــة وقانونية كبيرة. وكان التشابه بينه وبـــين شخـــصية الفقيـــه المـــسلم واضحًا. أما الكبار Viejos فقد كانوا ينتمون إلى عائلات كبيرة، وهم المسئولون عن إدارة شئون الجماعة، والمهام المتعلقـــة بالـــضرائب، وتسيير شئون القضاء. ولم يكن ثمة اختلاف واضـــح بيـــنهم وبـــين الديانيم اللهم إلا اختلاف واحد، وهو مهم، إذ يتمثل فـــى أن الحاخـــام كان يصل إلى منصبه بالتعيين، وأما الكبار فكانوا يختـــارون علـــى ضوء ما يتمتعون به من سمعة طيبة، وتقـــديرًا لنـــسبهم وحـــسبهم. أما جمعيات الأقاليم، أو جمعيات المملكة بالكامل فكانت تحت إشراف الحاخام الأكبر، المعين من قبل الملك، فى بعض الأحيان.

وكانت المناطق الإدارية اليهودية، مناطق المـــدجنين، تـــضم المعابد أو المساجد، والحمامات، والمجازر، والجـــبانات إلـــخ، كـــل فيما يخصه. وعلى خلاف جماعات المـــدجنين، كانـــت الجمعيـــات اليهودية تضم جماعات من المثقفين الـــذين يعكفـــون علـــى دراســـة التوراة، ونصوص التلمود، وكانت هذه الجماعات تشترك فى مختلف حالات الفكر المتعلقة باليهودية، فى ذلك الحين، وكان التعاون قائمًـــا

بينهم وبين الشخصيات البارزة فى مجالات الفلسفة والأدب، وخاصة فى مجال الشعر.

تحمّل كل من المدجنين واليهود، كما ذكرنا، أعباء ضرائبية خاصة، ومع ذلك لم يعفوا من الضرائب الأخرى العامة المفروضة على جميع السكان فى المملكة. أضف إلى ذلك أعباء استثنائية أضيفت اعتبارًا من عام ١٤٨٢، والتى أصابت الطائفتين المدجنين واليهود، باختناق حقيقى. بالنسبة للضرائب الأولى كانت هناك لجنة مكلفة بالتقدير والتحصيل، يختار الملك أعضاءها من بين كبار المسلمين، بالاشتراك مع الفقهاء، وبالتالى كان هؤلاء هم القيادات المرئية بالنسبة للطوائف. ومع ذلك، لم يكن لأحد من هؤلاء مهمة فى توزيع جزية أو إتاوة أو ضريبة بدون إذن من الملك، حتى لو كانت هناك نفقات مطلوبة للإنفاق على الشئون الداخلية للطائفة أو الجمعية. ولقد نص القانون الصادر عام ١٤١٢ على هذا الحظر، وظل العمل ساريًا به طوال القرن الخامس عشر، وتضمن هذا النظام أيضًا عددًا آخر من القيود والمحظورات، على غرار تلك القيود الملكية المعمول بها فى قشتالة، ومنها منع اليهود والمسلمين من حمل السلاح. ولعل الجديد والمهم فى ذلك القانون هو بدون شك، ذلك الحظر الذى يقضى بعدم مغادرة المملكة، أو تغيير محل الإقامة داخلها، ويعرض من يخالف ذلك للسجن، ومعاقبة كل من يأوى أحدًا من المدجنين الغرباء.

كذلك فرضت سلسلة من القيود الاجتماعية الأخرى على كل من المدجنين واليهود، من قبل التشريع الكنسي. فقد قرر مجمع لتران **Letrán** الكنسي عام ١٢١٥ أن يرتدى اليهود والمسلمون المقيمون فى المجتمعات المسيحية ألبسة تميزهم عن غيرهم. وثبت أن ارتداء الأزياء الخاصة بالمسلمين ظل معمولاً به حتى النصف الثانى من القرن الثالث عشر، كما كان هناك تمييز بشأن تمشيط الشعر وشكل اللحية. وصدرت طوال القرن الثالث عشر قرارات استهدفت المدجنين، تجاوزت التمييز فى شكل الملابس إلى منعهم من ارتداء الأقمشة القيِّمة والجوخ ، أو النعال الثمينة، أو التزين بما يوحى بوضع اجتماعى راق. كذلك نصت أوامر بلدية بورغوس **Burgos** الصادرة عام ١٤٨٥ على حرمان المسلمين من استعمال المجوهرات الذهبية، أو ارتداء الملابس الحريرية، أو الملابس القرمزية، أو استعمال لون غير اللون الأسود فى التزيين.

يرجع أول القرارات الخاصة بوضع علامة مميزة على الملابس إلى ما أقره المجلس النيابى فى بالنثيا **Palancia** فى عام ١٣١٢، وما أقره المجمع الكنسى فى سمُّوره **Zamora** عام ١٣١٣، وطبقت على اليهود فقط. أما بالنسبة للمدجنين، فقد أمر الملك هنرى الثانى فى مجلس تورة **Toro** النيابى وفى مرسوم له فى عام ١٤٠٨ ، بوضع هلال أزرق على الكتف الأيمن، وقلنسوة لونها أصفر ضارب إلى الخضرة. ونص قانون عام ١٤١٢ الشهير، والذى سبق أن أشرنا

إليه، على حظر ارتداء الأقمشة الثمينة، وحلق اللحية أو شعر الرأس، كما نص على ألا يدعى أحد منهم فى التعامل بلفظ دون Don (سيد) وأدرجت مراسيم ملكية أخرى هذه القواعد، علـــى صـــور مختلفـــة، وفسر كثير من الكتاب تكرار هذه التعليمات بالإعراض دائمًـــا عـــن تنفيذها(*).

مظهر آخر من مظاهر التمييز الاجتماعي، تمثل فى الفـــصل الإسكاني، وقد بدأ ذلك يتبلور في مجمع سلمنكا **Salamanca** الكنـــسى عام ١٣٣٥م. وأكد مجمع بالنثيا الذى عقد على ١٤١٢ على ضرورة تطبيق فصل أحياء المسلمين وأحياء اليهود بشكل عام، مع التـــصريح لهم بتملك محال وورش خارج المناطق السكنية. وأخيرًا نص قـــانون عام ١٤١٢ على فصل اليهود والمسلمين وإبعادهم إلى أحياء خاصـــة بهم، ونص أيضًا على عدم السماح لهم بالإقـــامة مع المـــسيحيين، بل وأكد على ألا يدخل المسيحيون، والنساء بوجه خـــاص، الأحيـــاء الخاصة بتلك الطائفتين.

صـــدرت أيضًا قـــرارات أخـــرى تقـــضى بعدم الاتـــصـــال أو التقارب، فمثلاً تقرر منع النساء المسيحيات والمـــسلمات مـــن أن ترضع إحداهن طفلاً من دين غير دينها. واتخذ مجلـــس ســـيبوليبدا

---

(*) بهذا المنطق نفسه تم تفسير مجموعة القرارات التى تحظر سفر المسلمين إلى بلاد العالم الجديد على أنه دليل يفيد على وجود المسلمين هناك. (المراجع)

Sepulveda قائمة من القرارات، منها اعتبار أى امرأة مسيحية ترعى أطفالاً مسلمين أو يهود أو تعيش معهم، امرأة بغية تطبق عليها عقوبة الجلد والطرد خارج البلدة. كما تقرر عدم التصريح للمسلمين أو اليهود باقتناء عبيد أو خدم مسيحيين. وشملت قرارات الحظر أيضًا عدم الاتجار بالمأكولات الجاهزة وبيعها للمسيحيين، على أن يبيعوا لهم فقط الحيوانات الحية، وألا يتملكوا محالاً لتجارة المواد الغذائية أو البقالة. إننا ندرك أن هذه القيود لم تدخل حيز التنفيذ بشكل مستمر ؛ فقد جاء فى وثائق بورغوس مثل وجود بائعين من الباطن من المدجنين اشتغلوا بتجارة المواد الغذائية. كذلك اشتملت أحياء المسلمين واليهود على مخابزها، ومجازرها، وحماماتها، وجباناتها الخاصة فى مواقع منعزلة.

كانت مهنة الطب من المهن التى لم يسمح للمسلمين أو اليهود بممارستها، شأنها فى ذلك شأن كل ما من شأنه أن يوجد مجالاً للاتصال، بل وكل ما يمكن أن ينطوى على تفوق على المسيحيين. ولقد رأينا أن هذا الحظر لم ينفذ بالنسبة لليهود، وإن كان يدخل فى حيز التطبيق فى حالة إذا ما كانت هناك رغبة فى القضاء على شخص ما، أو تقديمه بوصفه كبش فداء لعدم رضاء السلطة الملكية عنه. منع المسلمون واليهود أيضًا من العمل بقالين، أو صيادلة، أو أطباء، أو جراحين، أو قابلات (مجمع بلد الوليد الكنسى

عام ١٣٢٢، ومجمع سلمنكا عــام ١٣٣٥ وقــانون ١٤١٢). مــرة أخرى ثبت فى بورغوس أن الواقع لا يتفق بالضرورة مع مــا هــو مشروع، ففى عام ١٤٨٤ قرر المجلس البلدى هناك منع المــسلمات من ممارسة مهنة القابلة أو الممرضة، ولكنه أشار فى النص نفــسه إلى أنه في حالة تطبيب امرأة مسيحية من آلام نسائية وتطلب الأمــر استدعاء مسلمة يُصرح للمسلمة بالاستجابة بموجب تــرخيص مــن السادة المعاونيين و القضاة العاديين بالمدينة.

كان الزواج المختلط من المحظورات أيضًا، وكــذلك دخلــت إقامة العلاقات الجنسية أو العاطفية قائمة الممنوعات. هذا ولم يسمح لليهود أو المسلمين بتولى شئون الوصاية، ولا يستعان بهم فــى الــشهادة ولا يتخذ أحد منهم أبًا روحيا. ولم يسمح لأحد ممن ينتمون إلى طائفة بحضور الحفلات الخاصة التى تقيمها الطائفة الأخرى. وكان نظــام السلام والتعايش قائمًا على التمييز بين الطوائف، بل وكانت الأقليات نفسها تسعى إلى هذا التمييز ، بوصفه وسيلة من وســائل الحمايــة، وأسلوبًا للمحافظة على ترابط الجماعة وتماسكها، والتمسك بالتقاليــد التي تحكمها وبشعائرها الدينية. كما كان محظورًا علــى المــسلمين واليهود أيضًا حضور أعياد المسيحيين وصلواتهم. مرة أخرى نــشهد أن روح التسامح على الصعيد الشعبى كانت أكثر قوة من القــوانين. واعترف بذلك مجمع بلد الوليد الكنسى، والمجمع الأســقفى لمدينــة

طليطلة، إذ أصدرا أوامر تقضى بأنه "من الآن فصاعدًا لا يسمح بحضور المسلمين أو اليهود فى الكنائس أثناء الاحتفالات، كما يحظر على المسيحيين المشاركة في حفلات الزواج، أو فى جنازات المسلمين أو اليهود. وعلى الرغم من هذه التفرقة التى يفرضها القانون كانت علاقات حسن الجوار سائدة بين مختلف الطوائف. وقد شارك مسلمو مدينة أبيلا **Avila** المسيحيين أحزانهم أثناء مراسم جنازة هنرى الرابع فى الكاتدرائية، كما شاركوهم أفراحهم بمناسبة الاحتفال بتولى إيسابيل عرش البلاد بعد بضعة أيام.

من جهة أخرى، اتخذت مجموعة من الإجراءات القانونية، استهدفت دفع الناس إلى اعتناق المسيحية، كما نصت على إنزال أشد العقاب على من يرتد عن المسيحية، أو من يتحول من اليهودية إلى الإسلام أو العكس. وتضمنت الضغوط الاجتماعية والاقتصادية التى تحض الناس على التنصر احترام حق الملكية للمتنصر (مجمع مدينة بنيافييل **Peñafiel** الكنسي عام ١٢٠٣) كما تضمنت أيضًا تقديم مساعدات نقدية، وعطايا للمتنصر الفقير (مجمع بلد الوليد الكنسى ١٣٢٢) هذا بخلاف ما قد يتمتع به المتنصرون من معاملة ضرائبية أكثر ترفقًا، إضافة إلى وضع قانوني لا يشوبه تمييز.

محصلة هذه القرارات كانت مدمرة، ولا تتفق كثيرًا مع مفاهيمنا المعاصرة عن التسامح، مهما تصورنا تصاعد هذه المحصلة

وما صاحبها من غياب التوازن بين الإصدار والتطبيق عبر ثلاثة قرون، ومهما أشارت الوثائق إلى أن التعايش اليومى بين مختلف الطوائف كان بعيدًا عن صرامة القانون. كان القوى هو الذى يستند إلى ذلك التشريع كلما رأى نفسه فى حاجة إليه، ومن هنا يتبين أن الأقليات كانت تعانى من التهميش والعجز عن الدفاع عن نفسها تمامًا. ومع ذلك ينبغى ألا نغفل أن تلك الظروف التى ألمت باليهود والمدجنين كانت أفضل كثيرًا من تلك التى مر بها اليهود فى مختلف البلاد الأوروبية المعاصرة فى ذلك الوقت، بما فى ذلك ما اتخذته الممالك الأوروبية جميعها من قرارات تقضى بطرد اليهود من أراضيها خلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر.

أما فيما يتعلق بمجالات المدجنين المهنية، فقد رأينا أن كثيرًا من القرارات التشريعية التى أشرنا إليها وضعت قيودًا شديدة أو منعت من ممارسة مهن بعينها، وبخاصة تلك التى لها علاقة بدوائر الاختصاص العمومية، والتغذية، والطب. وأضاف القانون الصادر عام ١٤١٢ المهن التالية إلى قائمة الممنوعات : البيطرة، والحدادة، والنجارة، وصناعة الدروع، والحياكة، وتجارة الجوارب، والجزارة، وتجارة الجلود، والملابس المستعملة، وتجارة الجملة. إلا أن هذه القرارات لم تدخل فيما يبدو حيز التنفيذ بالفاعلية الكافية على أرض الواقع . حقيقية إننا لم نتوصل إلى معرفة ما إذا كان ثمة

مسلمين شغلوا مناصب عامة، أو كان لهم دور فى ممارسة الطب (وإن كانوا يقومون بعمل الممرضين والقابلات إلخ...) ولكننا عرفنا – كما سيتبين فيما بعد – أن هناك من اليهود من كان يمارس تلك المهن، علمًا بأن قرارات الحظر كانت تشملهم. ويرجع السبب الأساسى فى هذا التمييز إلى وضع كل من الأقليتين. فسرعان ما فقد المدجنون النخبة والطبقة المثقفة لأن هؤلاء آثروا الهجرة إلى الأندلس، بينما تمسك اليهود بالمناطق التى استولى عليها المسيحيون(*) اعتبارًا من نهاية عهد ملوك الطوائف (واحتلوا مناصب متميزة بها) وحتى غزو المرابطين، واحتفظوا بطبقة الصفوة، والطبقة المثقفة منهم. ولذلك ازداد وضع المدجنين تدهورًا وتهميشًا، ولكنهم لم يكونوا عرضة لمناخ عدائى على الصعيد العام فيما يبدو ، على عكس الحال تجاه اليهود.

تناولت وثائق المدن الرئيسية فى قشتالة المدجنين وأشارت إلى ممارستهم لمختلف لصور النشاط الحرفى، وخاصة الأنشطة المتعلقة بقطاع البناء، والحدادة، وصناعة الأقفال، والزجاج، والفخار،

---

(*) تفضيل اليهود الإقامة فى الممالك المسيحية يتناقض مع ما ورد فى كتاب اخر يقول فيه يهودى "إن معاملة المسلمين لنا أفضل كثيرًا من معاملة المسيحيين" انظر كتاب "بين الإسلام والغرب" ترجمة ممدوح البستاوى، مراجعة وتقديم جمال عبد الرحمن، المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٥. (المراجع)

والسلال إلخ... وقد ثبت وجودهم على نطـاق كبيـر فـى مجـال البساتين. وفى سيغوبيا كانت جميع المحاصيل البستانية في ضـواحى منطقة البارال Parral خاصة بهم وحدهم. وانفردت بورغوس بوجود نجارين مسلمين مهرة في صناعة الأدوات الحربية، كمـا اشـتغلوا أيضًا رجال إطفاء. كذلك كان هناك نجارون من بلـد الوليـد. إنهـا حرف متواضعة فى العادة وجدت في المناطق الحضرية والمنـاطق المحيطة بها. ولعل الطابع البسيط والخلاق الذى اتسم بـه المـدجن (الموريسكى فيما بعد) والذى تناولته أدبيات العصر إنما هو انعكـاس لذلك القصور المهنى والاجتماعى الذى يصعب تجاوزه.

من حسن حظ الأقلية المسلمة فى قشتالة أيضًا أن أحدًا لم يبـد اهتمامًا بها. وهـذا يعنى أننا لا نعرف إلا النزر اليسير عن المنـاخ الذى كان يؤدى فيه المدجنون شعائرهم الدينية. ولعل ما نعرفه حقـا أنه كان لزامًا عليهم أن يعربوا عن آيات الإجلال والتقـدير للديانـة المسيحية؛ فلم يصرح لهم بالعمل علانية أيام الأحد أو فـى الأعيـاد الرسمية، وكان يتحتم عليهم أن يحبسوا أنفسهم فـى ديـارهم فتـرة أسبوع الآلام، كذلك كان لزامًا عليهم أن يجثوا راكعين إذا تـصادف مرور القربان المقدس أمامهم. وبالنسبة للنشاط التبشيرى للإسـلام فقد كان محظورًا، وكان من يقدم عليه يعرض نفسه لأشـد صـنوف العقاب.

بوسعنا أن نؤكد – على ضوء هذه المعلومات إذن – أن طائفة المدجنين فى قشتالة كانت مجرد أقلية محدودة العدد، ومع ذلك عاشت فى استقرار على مدى العصور الوسطى ، وكانت بعيدة كل البعد عن كونها كتلة واسعة الانتشار فى مختلف المواقع. وكانت مقسمة إلى جماعات استقرت فى مناطق الحضر بشكل أساسى، حيث تركز نشاطها فى الفنون الحرفية والتجارة البسيطة والفنون التى تتعلق بالبناء : فن العمارة باستخدام الطوب، وأعمال الجبس، والنجارة، والفنون الحرفية. نماذج متراكبة على الطراز الرومانى، تطالعنا بها فنون المدجنين بدءًا من سيغوبيا وحتى بالنثيا Palencia، بما فى ذلك ليون وبورغوس. تميز الطراز الفنى الذى عرفناه عن المدجنين خلال العصور الوسطى المتأخرة بالتكامل والتماثل مع مختلف الطرز المسيحية (الرومانى، والقوطى، وطراز عصر النهضة ... إلخ) دون أن يوحى مظهره بوجود ضمنى لجماعة من المدجنين.

لعل أكثر العصور تأثرًا بالمدجنين، بالنسبة لقشتالة هى تلك الفترة التى تمتد ما بين القرن الثالث عشر والقرن الخامس عشر، ولقد فتح القرن الثالث عشر (اعتبارًا من موقعة العقاب Navas De Tolosa التى دارت رحاها عام ١٢١٢م، وأسفرت عن هزيمة ساحقة للسلطة المسلمة) فتح الطريق أمام عدد هائل من الغزوات الإقليمية التى شملت أيضًا منطقة وادى نهر الوادى الكبير. فى ذلك

الوقت كان خايمي الأول ملك أراغون يشن هجماته على القطاع الشرقي لشبه الجزيرة كله. ونتيجة للاحتلال العسكري السريع لمناطق شاسعة، كثافة السكان فيها عالية، وغنية بموارد اقتصادية وريفية متطورة للغاية، اضطر الغزاة (وكان ينقصهم الحرفيون المتخصصون، والعمال المدربون على نظم الرى) إلى الاستعانة بسكان المناطق التى تم الاستيلاء عليها. وترتب على ذلك تأثير هائل ترك المدجنون بصماتهم من خلاله على الحياة اليومية للغزاة المسيحيين.

اتخذ القشتاليون بعد احتلالهم للغرب الأندلسى من بيوت المسلمين التى شيدها أصحابها ما يتناسب مع احتياجاتهم. أما البيوت الجديدة فقد قام ببنائها الحرفيون من المدجنين، وتم تجهيزها بالسجاد، والحصير، والأثاث، والقيشانى أو السيراميك ، والأوانى الفخارية، التى نقلت من بيوت الأندلسيين. وكان القطاع الأكبر من خدم المنازل، والمرضعات، وعمال الحدائق والبستانيين، من المدجنين . وبدا تأثير المدجنين واضحًا تمام الوضوح فى العادات والتقاليد ومظاهر الترف فى الأكل، بل وفي الملابس أيضًا . حتى القرن الخامس عشر كان القشتاليون يفضلون أزياء المسلمين، وخاصة الطبقة الأرستقراطية، وإن كان ذلك يحدث بشكل عارض، وحتى الملكة إيسابيل الكاثوليكية نفسها، شأنها شأن كثير من النساء، كانت

ترتدى أزياء المسلمين. وكان بدرو الأول ملك قشتالة، الذى شيد حصن إشبيلية Alacazar، ودير طوردوسيلاس Tordosilas، وهما من الآثار الرائعة المتميزة بالطابع الفنى الذى عرف عن المدّجنين، كان مغرمًا بارتداء الزى الإسلامى. لم يرجع تأثير المدجنين هذا إلى بقاء سكان منهم فى المناطق التى استولى عليها المسيحيون فحسب، بل يرجع أيضًا إلى الاتصال الذى لم يتوقف على مدى قرنين من الحرب مع حدود مملكة غرناطة، ويرجع أيضًا إلى تدخل القشتاليين فى شئون الغرناطيين الداخلية. وقد وصفت مملكة غرناطة أيضًا بدورها بأنها مملكة (مدجنة) لأن بقاء المملكة كان مرهونًا بدفع الجزية لمملكة قشتالة.

وكان من نتائج الحرب أيضًا، وقوع عدد كبير من الجانبين فى الأسر، وبالنسبة للقشتاليين استخدم الأسرى فى الأعمال المنزلية بشكل دائم تقريبًا ، كما أن وجود عدد كبير من الغرناطيين ممن كانوا يلجأون فى بعض الأحيان ويلتحقون بالبلاط القشتالى بصفة مؤقتة، لأسباب سياسية، كان له دوره أيضًا فى التأثير على أزياء العاملين بالبلاط وعلى أسلوب حياتهم.

ولما زار عدد من الرحالة الأوروبيين البلاط القشتالى فى القرن الخامس عشر، أبدوا دهشتهم واستنكارهم لما شاهدوه من طغيان الطابع الإسلامى على البلاط. وكان ذلك واضحًا تمام الوضوح فى

فرق الحرس الغرناطية المسلمة(*)، الخاصة بالملك. فقد التحقت جماعات من مملكة غرناطة ممن اضطروا إلى الخروج من المملكة بسبب الصراعات الأهلية التى دارت هناك، التحقت بخدمة ملوك قشتالة خوان الثانى (١٤٠٦-١٤٥٤) وإنريكى الرابع (١٤٥٤-١٤٧٤). ولعبت الصراعات التى دارت بين مختلف المرشحين لتولى عرش قشتالة دورًا فى تهيئة المناخ أمام هؤلاء المرشحين فى الاستعانة بجيش غريبٍ عن المجتمع القشتالى وأحزابه، يدين بالولاء للملك. وغالبًا ما كان يعود هؤلاء الفرسان إلى غرناطة إذا ما تغيرت الأوضاع وأصبحت لا تتناسب مع رغباتهم، ومع ذلك كان أغلبهم يفضل البقاء فى قشتالة، وعلى الرغم من انتهاء المطاف بهم إلى التحول إلى الديانة المسيحية، فإنهم ظلوا متمسكين بالطابع الغرناطى، سواء كان فى الملبس أو فى تسريج الركائب أو فى التسلح. يقول المؤرخ ألونسو دى بالنثيا Alonso De Palencia المعاصر للملك إنريكى الرابع "تضاعفت أعداد الحاشية من المسلمين؛ فقد لقى لباسهم ارتياحًا لدرجة أن الملك كثيرًا ما كان يبدى إعجابه بأفضل من يحاكيهم فى الملبس؛ وكان الفرسان من الغرناطيين والبربر، لما كانوا يتميزون به من تفوق فى (المبارزات)، وإن كانوا أقل كفاءة فى

---

(*) كان بعض الملوك الإسبان المسيحيين يتخذون حراسًا من المسلمين، وقد استند الجنرال فرانكو إلى هذه المعلومات ليبرر أمام منتقديه استخدام حراس مغاربة بعد انتصاره فى الحرب الأهلية الإسبانية. (المراجع)

المعارك الجدية، يلقون قبولاً وتفضيلاً عن فرساننا رغم تميز فرساننا عنهم في القامة والقوة". هذه العوامل الشكلية - الجلية في نطاق ظاهرة عميقة - كان لها دورها في طرح شخصية فريدة للنهضة في إسبانيا، نهضة علاوة على انطوائها على الآثار الكلاسيكية، كما هو الحال في إيطاليا، تشربت بالطابع المدجن وطابع العصور الوسطى. أضف إلى ذلك أن هذه العوامل تجلت أيضًا وبمنتهى الوضوح في قصور النبلاء في إشبيلية (بيت إبيلاتو في إشبيلية، مثل طيب لذلك) حيث تزين التماثيل الرومانية الواردة من إيطاليا، أو الفسيفساء الواردة من (إسباليس) بيوتًا تجلت فيها مهارة الحرفيين المدجنين في أعمال الجبس والقيشاني.

أُلغي الحرس عام ١٤٦٦، ولكن بقي بعض أفراد منه في قشتاله بوصفهم مدجنين . ومنهم الفارس فرج دي بلفيس **Farax De Belvis**، الذي عين بعد انتهاء خدمته في الحرس محصل ضرائب (ضريبة الخدمة ونصف الخدمة) في جمعيات المسلمين، وفي عام ١٤٥٢ عين قاضيًا في جماعة المسلمين في وادي الحجارة **Guadalajara**.

ومع ذلك، كانت النخبة من المدجنين مجرد قلة، وكانت تلك النخبة تتحرك في فلك الملوك أكثر من تحركها لخدمة الطوائف التي ينتمون إليها، بعد أن تراجع فيها استخدام اللغة العربية كما سبق أن ذكرنا. وعلى الرغم من أن الإسلام في عصر المدجنين كان مقيدًا

وضعيفًا، فإن حالات التحول الدينى لم تبدأ فيمـــا يبـــدو قبـــل عـــام ١٥٠١م. ومع ذلك، فإن الظروف السياسية والدينية التى بـــدأ فيهـــا القرن السادس عشر فى قشتالة أدت إلى إصـــدار مرســـوم يقـــضى بتحول المدجنين إلى المسيحية بـــصورة جماعيـــة. رأى المـــدجنون القشتاليون أنفسهم مطوقين بالأحداث، وغارقين فى المنازعات التـــى أخذت تزلزل فى ذلك الحين مملكة غرناطة بعد الاستيلاء عليها، وأنه يتعين وضع سكانها فى الحسبان، رأوا أنفسهم فى عام ١٥٠٢ أمـــام معضلة كالغرناطيين، إما أن يهاجروا فى ظل ظروف كانت الهجـــرة تبدوا فيها أمرًا شبه مستحيل، وإما أن يسلموها بالتعميد. ومن الناحية العملية، تحولوا جميعًا إلى المسيحية(*).

وهكذا تلاشت فى عام ١٥٠٢ طائفـــة المـــدجنين المحـــدودة وتراجع معها وضعهم القانونى. وبقى المدجنون بموجب قرار تحـــت مسمى "المسيحيون الجدد" . ثمة ملاحظة هامشية للاضطرابات التـــى سادت فى غرناطة، هى أن تلاشـــى هـــذه الطائفـــة لـــم تـــصاحبه صراعات، ولم يحدث جلبة، بل ولم يستدع اتخاذ إجراءات سياســـية خاصة. ومع ذلك لم يستطع أحد أن يغفل فى القرن التـــالى ظهـــور مشكلة الموريسكيين، وإن لم تبد حادة فى قشتالة كما كان الحال فـــى مناطق أخرى بالبلاد.

---

(*) كان تحولاً ظاهريًا فقط، أما فى الخفاء فكانوا يمارسون شعائر الإسلام. (المراجع)

غرناطة :

سوف نلقى لمحة سريعة فقط علـى غرناطـة، لأن لائحـة المدجنين ظلت قائمة فى هذه المنطقة وحدها نحـو عـشر سـنوات، ولذلك سوف نتنـاول المجتمـع الغرنـاطى فـى الجـزء الخـاص بالموريسكيين.

فى عام ١٢٣٧ كانت غرناطة عاصمة آخر الممالك الإسلامية فى شبه الجزيرة. وكانت تشتمل على أقاليم مالقة **Malaga**، وغرناطة **Granada**، والمرية **Almeria** الحالية، وتخضع لحكـم بنـى نـصر. تميزت هذه المملكة بكثافة سكانية عاليـة، أضـيف إليهـا لاجئـون مسلمون وفدوا إليها مـن جميـع المنـاطق التـى اسـتولى عليهـا المسيحيون. ولما كانت هذه المملكة تخـضع لتـاج قـشتاله، وكـان سلاطينها يدفعون الجزية، تعرضت لتدخلات قشتالية فـى نزاعاتهـا السياسية الداخلية، علاوة على الدخول فى حرب حدوديـة اسـتمرت على مدى عامين .

أخيرًا سقطت غرناطة على أيدى الملكين الكـاثوليكيين عـام ١٤٩٢، اللذين عقدا اتفاقات متميزة مع الملوك المسلمين على غـرار تلك التى أبرمت خلال أفضل عهود المدجنين. شهد ذلك العام أيـضًا صدور المرسوم الذى يقضى بطرد اليهود ، وهذا مـا جعـل نهايـة عصر الاتفاقات أمرًا متوقعًا.

معاهدة الاستسلام التى وقعت قبل سقوط غرناطة، أثناء عمليات الغزو التى انتهت عام ١٤٩٢، كانت تسمح للأندلسيين بالنزوح إلى المغرب. أما بالنسبة للاتفاقات الموقعة أثناء الاحتلال القشتالى للقطاع الغربى من المملكة (١٤٨٤-١٤٨٧)، باستثناء مالقة، فقد منح المنتصرون مهلة تتراوح من عام إلى عامين لمن أراد من المسلمين أن يتوجه إلى الجانب الآخر للمضيق، وسمحوا لهم بالمرور مجانًا بأمتعتهم المنقولة. وبانتهاء تلك المهلة كان على كل من أراد الهجرة أن يسدد رسومًا للمرور . وأما بالنسبة لكل من غرناطة ، والبشرّات **Alpujarra** ، فقد منح الملوك الكاثوليك سكانهما بعد أن ألقوا السلاح بانتهاء الحرب، مهلة ثلاث سنوات لمن أراد الخروج. وإن ما كانت تسعى إليه السلطات المسيحية حقيقة ليس إلا تخليص المجتمع الإسلامى فى غرناطة من رعوسه، بما يقضى على طبقاته الحاكمة. ولقد بعث هرناندو دى ثافرا **Hernando de Zafra** برسالة إلى الملك والملكة مؤرخة فى ديسمبر ١٤٩٢، أفاد فيها بمرور أفراد الأسر الكبيرة فى غرناطة بمنطقة ما وراء الجبال، وأعرب فيها عن تهانيه بأنه لم يبق بالمملكة سوى "عمال ومستخدمين مسلمين" وفى حديثه عن منفى أبى عبد الله، ملك غرناطة هو وأسرته، يقول بدرو مارتر دى أنغليريا **Pedro Martir de Angleria** فيقول : "وبذلك يزول أى احتمال لحدوث تمرد بين من يفتقرون إلى

القانون، فنادرًا ما تتقلب الشعوب أو تعلن تمردها عندما يغيب عنهم من الزعماء من ينتظرون الخضوع لحكمهم". كانت الهجرة تتم فى الخفاء بعد فرض التحول إلى المسيحية إجباريا فى عام ١٥٠٢م، وبلغت ذروتها فى الفترة من عام ١٥٠٤ إلى ١٥١٠م.

فى غضون بضع سنوات، أى ما بين عامى ١٤٩٢ و ١٤٩٩، استقرت الأمور على حالها، وساعد على استقرارها عدد من نبلاء غرناطة (المتعاونين)، تحول القطاع الأكبر منهم إلى المسيحية، وتعايشوا مع السلطة الجديدة، واشتركوا فى بعض الأمور من بينها عمليات توزيع الأراضى على النبلاء والمستوطنين المسيحيين. بقيت فى مملكة غرناطة الجديدة مجموعة من الأسر المسلمة وحصلت على الامتيازات التى كانت تتمتع بها طبقة النبلاء، وذلك مقابل ما قدمته من خدمات إلى التاج، وكانت تلك الامتيازات تقتضى أن يكون أفراد تلك الأسر قد اعتنقوا المسيحية طواعية وقبل سقوط المدينة (وعلى أى حال قبل صدور قرار التنصير الإجبارى الصادر عام ١٥٠٢) أو أن يقدموا ما يثبت انتماءهم إلى سلالة الملوك المسلمين فى غرناطة . تمتعت تلك الأسر، ومن ببينها بعض الأسر الشهيرة مثل أسرة غرناطة بنيغاس، والثغرى، ونونييث مولاى... إلخ، تمتعت بكافة الامتيازات والجبايات غير القانونية لصالح النبلاء، وتزوج أفرادها من أسر الفاتحين أو المستوطنين، واندمجت اندماجًا كليًا مع

الأقلية الحاكمة فى غرناطة، وكان تكاملها تكاملاً مطلقًا . ارتبطت بالجمعيات الدينية، وانضمت إلى الأنظمة العسكرية، وشغلت مناصب فى حكومة المملكة. كان دورها فى الدفاع عن مصالح طائفة الموريسكيين متباينًا. وشارك القطاع الأكبر منها فى حرب البشرات إلى جانب المسيحيين. كما نجوا من عمليات الطرد التى تمت عام ١٥٧٠ وعام ١٦١٤. وكانت هذه الأسر تمثل مجموعة لا يستهان بها، كما كانت نموذجًا للاندماج والانصهار الموريسكى فى المجتمع المسيحى.

أما فيما يتعلق بالشعب البسيط، فقد تدهور وضع المدجنين تدهورًا سريعًا خلال السنوات الأخيرة من القرن لأسباب اقتصادية (مثل دمار صناعة الحرير، حيث لم يبد المسيحيون اهتمامًا باستمرارها) وبسبب وصول المستوطنين المسيحيين ثم شغلهم للأراضى، وتدهور وضعهم بشكل خاص لأسباب دينية . ووصول الكاردينال ثيسنيروس **Cisneros** إلى غرناطة أدى إلى إعلان حملة عنيفة تقضى بالتحول إلى المسيحية، أدت إلى اندلاع ثورة أجج نيرانها المدجنون فى ربض البيازين **Albaicin** وغرناطة عام ١٤٩٩. وامتدت الثورة لتشمل كل المملكة دون أن يتمكن أحد من إخمادها حتى عام ١٥٠١. فقد ثار المدجنون لما أدركوا انتهاك العهود ، واعتقد المسيحيون أن التمرد كان قد انتهى بتوقيع الاتفاقات. ثم أدى

ذلك إلى صدور قرار التحول الإجبارى إلى المسيحية عـام ١٥٠٢، والذى سبق أن تحدثنا عنه، وامتد العمل به فى المنـاطق الخاضـعة لتاج قشتالة.

### مملكة أراغون :

فى هذا الجزء لن أعيد الحديث عن قضايا التشريع الكنسـى، أو حول التنظيم الداخلى للجمعيات، ولا أية عناصر أخرى مـشتركة مع ما سبق التعرض له مع المدجنين فى المناطق القـشتالية، ولكـن سوف أركز أساسًا على العلامات المميزة للمـدجنين فـى المنـاطق الخاضعة للتاج الأراغونى بما فيها فالنسيا.

فى البداية، وعلى خلاف ما هو معروف فى قشتالة، نعـرف جيدًا أن أصل المدجنين إنما يرجع إلى السكان الأصليين الذين أقاموا فى المنطقة قبل الغزو المسيحى. إنهم سكان ريفيون فـى الأسـاس، أقاموا بكثافة فى وديان الأنهار الرئيسية فى بلدان صـغيرة للغايـة، وأحيانًا كان سكان تلك البلاد جميعهم من المدجنين فقـط، وخاصـة أراضى السلطة أو المناطق العسكرية. أى أن وضعهم يختلف تمامًـا عن الوضع فى قشتالة، وهو ما سوف نتناوله فيما بعد.

بعد مرور ثلاثة قرون من السيطرة الإسلامية، بدأت البلـدان الصغيرة بمنطقة البرانس التى أفرزتها الاضطرابات بـين الـسكان

الأصليين وبمساعدة الممالك الفرنسية المجاورة، فى أواخر القرن الحادى عشر وأوائل القرن الثانى عشر، بدأت توسعًا إقليميا حتى وصلت إلى وادى نهر الإبرو **Ebro**. كان عدد سكان تلك الحصون البرانسية المتناهية الصغر قليلاً، وبالتالى كانت طاقتهم السكانية عاجزة عن شغل المناطق التى تم الاستيلاء عليها من السلطة الإسلامية، لذلك أبقت التوسعات التى تحققت فى القرن الثانى عشر على قطاعات كبيرة من سكان المناطق التى تم الاستيلاء عليها من المسلمين الذين قبلوا البقاء تحت سيطرة المسيحيين. أما فئة القيادات ورجال السلطة، وأصحاب الأراضى، وكبار رجال الدين والمثقفين الأندلسيين، فقد اختاروا حياة المنفى فى ظل سلطة مسلمة. ولقد كان لاحتمال البقاء فى ظل ظروف مريحة نسبيا أثره فى استسلام كثير من المناطق، وهذا ما خفف من حدة العمل العسكرى والسكانى، كما كان له أثره فى تأمين قطاع الزراعة والقطاع الاقتصادى. كانت شروط الامتيازات وشهادات التخصيص تستهدف التحكم فى السكان المسلمين والسيطرة عليهم، خاصة أنهم كانوا يتمتعون بوضع معقول (حرية الهجرة، واستثناء من الأعمال الشاقة، والاحتفاظ بالهوية الدينية وبقوانينهم وسلطاتهم)، هذا بالإضافة إلى ظروف ضرائبية أفضل من تلك التى كانت تطبق فى ظل السلطة المسلمة إبان عصر المرابطين الذى تميز بالقسوة.

بذلك احتفظت منطقة وادى نهر الإبــرو، مــن تــوبيلا Tudela وحتى طرطوشة، وكذلك وديان روافده الرئيسية، (وخاصة نهر ثينكا Cinca، وسيغرى Segre، وخــالون Jalon، وخيلوكــا Jiloca) وهـــى مناطق غنية جدا بالزراعة، احتفظت بكثافــة عاليــة مــن الــسكان المدجنين، ظلوا حتى أدركوا العصور الوسطى المتأخرة فى ظـــروف ساد فيها التمييز والتهميش، كما كانت أحوال المدجنين فـــى قــشتالة. كانت هناك أيضًا جماعات مهمة فى كل من مدن سرقسطة، وأويسكا Huesca، وبربُشتر Barbastro، وقلعة أيوب. ولكن كثافـــة المـــدجنين العددية بالذات تركزت فى وديان مجرى نهــر الإبــرو، والوديــان الواقعة على روافد ضفته اليمنى. ذلك لأن نظــم الزراعـــة وتنظـــيم عمليات الرى وكل ما له علاقة بــبعض الأنــشطة ذات المرجعيـــة الإســـلامية القوية، رأت فى تلك المنــاطق خير من يــســتوعبهــا. أما بالنسبة لسادة القوم، فقد ترسخت سلطاتهم هنـــا بـــامتلاك أراض يقوم على زراعتها نسبة كبيرة من الأيدى العاملة من المدجنين، لقيت تقديرًا كبيرًا من جانب السادة (النبلاء)، ومن المقولات المعبرة التـــى كانت تتردد : "من كان لديه مسلم، ملك فى يديه الذهب".

ولكى نتعرف على عدد السكان المدجنين فى أراغون، ربمـــا لا تتوفر أمامنا سوى بعض المصادر ذات الطابع الضرائبى، كما هو الحال بالنسبة لقشتالة، علمًا بأن هذه المصادر ليست على قدر كبيـــر

من الثقة... أما أول إحصاء محفوظ فإنه يرجع إلى عام ١٤٩٥، وقد أجرى بناء على أوامر من المجلس النيابى فـــى تاراثونـــا (بـــلاط) Tarazona. ويتبين من هذا الإحصاء أنه كان هناك ٥١٥٤٠ منـــزلاً منها ٥٦٧٤ منزلاً تخص المسلمين. ولكن الخبراء يـــرون أن هـــذا الرقم قليل جدًا عن الواقع ، ويبررون ذلك بأن الجماعات كانت تلجـــأ إلى إخفاء الأرقام الحقيقية، لإدراكها أن أى بيانات سيكون لها مردود ضرائبى.

وكما هو الحال فى شمال قشتالة، فقد ترتـــب علـــى وجـــود المدجنين فى أراغون نتائج ملموسة وواضحة حتى يومنا هذا، تمثلت فى ظهور فن المدجنين. وهذا الفن هو أحد فنون العمارة، امتزجـــت فيه عناصر الفن الإسلامى بعناصر الفن الأوروبى بنـــسب مختلفـــة، فأفرزت شكلاً جماليا جديدًا، فالنتاج الفنى للمدجنين إنمـــا هـــو نتاج أو فن أصيل نبع من شبه الجزيرة الإيبيرية واقتصر عليها وحـــدها، وقد انتشر وتأصل (من القرن الثانى عشر، وحتى القـــرن الـــسادس عشر، ولكن طرأت عليه بعض المظاهر المستحدثة فى القـــرن ١٩) وقد تكامل مع النظم المعمارية وعناصر الديكور الإسبانية، وتجلـــى فى تحريك الحس الجمالى حتى انتهى به الأمر إلى الانفـــراد بطـــابع مميز له عُرف به، سواء كان ذلك فى مناطق استقر فيها أو لم يستقر

بها مدجنون. وقد تبنت مدينة سرقسطة إقامة المركز الرئيسى لإبداع فن المدجنين الأراغونى، كما كانت مركزًا إشعاعيا انتشرت منه نماذج مدجنة ووصلت إلى مدن ومناطق أخرى. وقد قام كثير من المدجنين المتخصصين فى حرف متعلقة بفن البناء ببناء قصور وأديرة وكنائس للمسيحيين الذين وصلوا حديثًا إلى مختلف المناطق، فى طليطلة أو ليون أو بالنثيا **Palencia** أو إكستريمادورا أو أندلوثيا. ونفذ المدجنون نماذج تعطى انطباعات رائعة بالثراء المبهر تجلت فى العمارة الدينية والمدنية والحربية، فضلاً عن المنشآت الحضرية (كما نلاحظ فى داروكا **Daroca**) مستخدمين فى ذلك مواد رخيصة يسهل الحصول عليها مثل الطوب الأحمر، والسيراميك المزجج، والجبس، والخشب، معتمدين على تطبيق نظم وتقنيات فنية ذات طابع إسلامى بحت.

**فالنسيا :**

اكتسب التوسع القطالونى الأراغونى دفعة هائلة فى القرن الثالث عشر مع تولى الملك خايمى الأول مقاليد السلطة. ويعتبر الاستيلاء على ميورقة (١٢٣٩-١٢٤١) أول مراحل هذا التوسع، إلا أننى سوف لا أركز على ذلك لأن المسلمين هناك كانوا أسرى

واعتبروا عبيدًا لا حق لهم فى تطبيق القانون الخـاص بالمـدجنين. أما بالنسبة لغزو مملكة فالنسيا خلال الفتـرة مـن ١٢٣١ إلـى ١٢٤٥ فـالأمر يختلف تمامًا، حيث اتبعت هناك سياسة الأحلاف؛ بهدف إبقاء السكان المسلمين فى وضعهم الطبيعى، ممـا جعـل مـن الـسكان المسيحيين أقلية حتى نهاية القرن(*).

أغلب سكان فالنسيا كانوا من المسلمين حتى نهاية القرن الذى تم الاستيلاء عليها فيه تقريبًا، وهذا لا يعنى أن التعايش هنـاك كـان أمرًا يسيرًا أو أن السلام كان يسود هناك. فالعداء من جانب المسلمين تجاه السيطرة القطالونية الأراغونية كان واضحًا بالطبع. وفى عـام ١٢٤٥ وقّع الأمير ألفونسو، وهو ابن خايمى الأول، معاهدة مع زعيم مسلم يدعى الأزرق: ونص الاتفاق على أن يحتفظ الأزرق بمجموعة من الحصون بالمنطقة الصحراوية بين دينيا **Denia**، وألكوى **Alcoy**، وتتبعان حاليًا لمحـافظة أليكـانتى **Alicante**، وذلـك لمـدة ثـلاث سـنوات، على أن يتم تسليم هذه الحصون إلى خايمى الأول بانتهـاء

---

(*) لمزيد من المعلومات عن وضع مملكة فالنسيا بعد استيلاء المسيحيين عليهـا، انظـر كتـاب "دولورس" المسلمون واليهود فى مملكة فالنسيا" ترجمة رانيا محمد أحمد، مراجعة وتقديم جمال عبد الرحمن، المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٤ . (المراجع)

المدة، فتزعم الأزرق ثورة مسلحة بعد انتهاء المهلة، ليست في المنطقة التى احتفظ فيها بالحصون التى تعهد بتسليمها فحسب، بل استولى على عدد آخر من حصون ملك أراغون؛ مما استفز الملك ودعاه إلى اتخاذ قرار بطرد المسلمين.

واندلع تمرد آخر فى عام ١٢٧٥، ولم يتمكن خايمى الأول من إخماده بسبب مرضه، فقضى عليه ابنه وولى عهده بدرو الثالث (١٢٧٦-١٢٨٦) بعد عام واحد. أخذ العداء المتبادل فى التصاعد، وانقض المسيحيون خلال الفترة من ١٢٧٦إلى١٢٩١ على أحياء المسلمين فى فالنسيا ، وشاطبة **Játiva** وفى مواقع أخرى، سلبًا ونهبًا.

وفى عام ١٥٧٨ طرد الملك بدرو "عددًا كبيرًا من المسلمين" من مملكة فالنسيا إلى تلمسان (الجزائر)؛ وبذلك حدث تراجع سكانى لدى مسلمى فالنسيا ، مما جعل صفة الأغلبية لا تنسحب على المسلمين فى أوائل القرن الرابع عشر، بل تراجع عددهم إلى النصف. ولما اجتاحت الحروب بين قشتالة وأراغون مملكة فالنسيا فى القرن الرابع عشر اتخذ الملك الأراغونى بدرو الرابع كل ما أمكنه من إجراءات لكى يعود المدجنون الهاربون إلى الأحياء التى كانوا يقيمون بها.

ومع ذلك كان المسلمون فى فالنسيا هم السكان الأكثر كثافة فى جميع المناطق المسيحية بشبه الجزيرة، اعتبارًا من تاريخ الاستيلاء عليها حتى اللحظة التى تم فيها طرد الموريسكيين، ولقد أدى موقع فالنسيا الحدودى مع مملكة غرناطة، وقربها من البحر وبالتالى من شمال إفريقيا، إلى اعتبار المسلمين هناك طابورًا خامسًا أو جواسيس فى نظر مسيحيى المملكة.

ونظرًا للكثافة السكانية، وقرب مملكة فالنسيا من مملكة غرناطة (حيث تواصلت العلاقات مع المدجنين فيها، وحيث كان يتلقى هؤلاء تعليمهم)، كان المستوى الثقافى العربى الإسلامى لدى الفالنسيين، أعلى مستوى فى شبه الجزيرة قاطبة، وحتى فى فترة الموريسكيين.

## (٤)

### الموريسكيون

تتدرج مشكلة الموريسكيين فى التطور الشامل الذى شهده المجتمع والدولة منذ أن تولى الملوك الكاثوليك عرش البلاد. فقد تواءم اتجاه الدولة المتصاعد للتدخل فى شئون الحياة السياسية والدينية والاجتماعية جميعًا مع اتجاهها إلى تسوية بل وتوحيد المعايير القانونية والعقائدية. اتسمت هذه السياسة بالجنوح شيئًا فشيئًا نحو تقليص الإقليمية والاستثناءات من القاعدة، مما أفرز آليات وفئات اجتماعية جديدة مثل المثقفين، وذلك بهدف فرض هذه السياسة. وقد دفع الموريسكيون - شأنهم شأن جماعات أخرى - ثمن تطبيق هذه السياسة.

من جهة أخرى، تجدر الإشارة إلى أن توحد إسبانيا تحت لواء تاج واحد أصبح يتم بالتوريث (تمامًا مثل الإمبراطورية) وذلك نتيجة لفترة سياسية طويلة قامت على المصاهرة، وأن مختلف الممالك اتحدت مع الاحتفاظ بتباين كبير فيما يتعلق بالمميزات والقوانين، بل وبالنسبة للعملات أيضًا، تباين بدا واضحًا تمام الوضوح فى كل

ما له صلة بالموريسكيين. اختلفت خصائص مختلف جماعات الموريسكيين، ورثة المدجنين (القشتاليين، والغرناطيين، والأراغونيين، وأيضًا الفالنسيين) اختلافًا غير عادى بالنسبة لمدى درجة الاندماج وسهولته، وبالنسبة لمدى الإلمام باللغة العربية، والكثافة السكانية، وأهمية المناطق التى كانوا يقيمون بها اقتصاديا، وكذلك بالنسبة للإجراءات التى اتخذها ملك أراغون وقشتاله تجاههم. خلال عهد الملوك الكاثوليك وعصر الملك كارلوس الخامس كانت مشكلة الموريسكيين مشكلة غرناطية وفالنسية أساسًا، واقترنت هذه المشكلة طوال القرن السادس عشر بالمشكلة التى أثيرت بسبب قراصنة الشمال الإفريقى، كما اقترنت أيضًا بمشكلة تحرش مسلمى غرب البحر المتوسط ببلدان جنوب شرق شبه الجزيرة، وما أثار ذلك من مخاوف، واقترنت أيضا بمشكلة المواجهة مع الإسلام الخارجى، الذى نادرًا ما كان يراه الإسبان المعاصرون فى معزل عن الداخلى، والذى كانت له علاقة بالصدام أو مواجهة الإمبراطورية العثمانية. كانت حرب غرناطة بمثابة بداية النهاية بالنسبة للمسلمين الإسبان وقد أثر ما جرى فى غرناطة على ما حدث بعد ذلك فى مناطق أخرى خاصة فالنسيا.

لما انتهت حرب غرناطة لوحظت تناقضات صارخة فى إبرام معاهدات الاستسلام. فهناك السماحة والتسامح تجاه دين الطرف

المهزوم، انطلاقًا من ضرورة وضع نهاية لحرب طويلة ومكلفة، بينما كان هناك تعسف شديد من جانب المجتمع "المسيحى القديم"، تلاحم مع فكر الملكية الإسبانية الحديث التى أخذت على عاتقها أن تتخذ من الدفاع عن المسيحية والعمل على نشرها مصدرًا للشرعية. ذلك التشدد المتصاعد، الذى أفرزته أزمة القرن الرابع عشر (والتى تجلت مظاهرها فى سلسلة من الاضطهادات والمذابح التى ارتكبت عام ١٣٩١ ضد اليهود)، زاد حدة فى أواخر القرن الخامس عشر بإنشاء محاكم التفتيش، وصدور لائحة نقاء الدم، وكذلك نتيجة لطغيان قيمة الشرف. ففى الوقت الذى أدخلت فيه محاكم التفتيش، وتم طرد اليهود، فإن معاهدات الاستسلام لا يمكن أن تعنى سوى أنها مجرد نقطة انطلاق زائفة. فمجرد إبرام تلك المعاهدات التى وقعها الملكان (الملك فرناندو والملكة إيسابيل) فى الوقت الذى تم فيه الاستيلاء على غرناطة، تسارعت أحداث التدهور فى غرناطة، حتى بلغت ذروتها باندلاع حركة التمرد فى ربض البيازين عام ١٥٠١، والتى تلاها صدور المرسوم الذى يقضى باعتناق مسلمى غرناطة المسيحية. وقد كان لهذا المرسوم سلسلة من ردود الفعل. من بين تلك التفاعلات التذرع بأن اتصال المتنصرين حديثًا برفاقهم القدامى فى الدين، قد يجعل اندماجهم فى الديانة المسيحية أمرًا صعبًا. فالقضية تتمثل فى أن المدجنين المقيمين فى المناطق التابعة لتاج قشتالة وجدوا أنفسهم

أمام خيارين بموجب المرسوم الصادر فى ١٢ فبراير ١٥٠٢، أما هذان الخياران فهما إما التنصر وإما الهجرة، إلا أن الهجرة كادت تكون ضربا من المستحيل بموجب الشروط الموضوعة. وبعد استيلاء قشتالة على نابارا Navarra عام ١٥١٢، تم تطبيق مرسوم ١٥٠٢ على المدجنين هناك.

بقى إذن، عندما اعتلى كارلوس الخامس العرش عام ١٥١٧، مسلمو أو مدجنو المناطق التابعة لتاج أراغون، ومن الواضح أنهم لم يكونوا مهيئين لتطبيق الإجراءات التى تم تنفيذها فى المناطق المجاورة. وتدخل حماتهم النبلاء لدى البلاط فى برشلونة عام ١٥٠٣ بهدف الحصول على ضمانات لصالح المدجنين، وفى عام ١٥١٧ اضطر كارلوس الخامس إلى أن يُكذب ما تردد حول قيامه بإعداد الترتيبات الخاصة بالطرد أو فرض التحول الدينى، وأقسم أنه لن يفرض ذلك بمرسوم. ولقد كان المفجر الذى أثار التوتر وأجج حدة العداء الشعبى ضد المسلمين (كانت الجماعات الفالنسية قد طلبت التصريح بحمل السلاح لمواجهة هجمات القراصنة، وقد صرح لها بذلك) ذلك التمرد الذى تزعمته الحركة النقابية المناهضة لطبقة السادة والنبلاء فى فالنسيا، ثم أُعلن التمرد ضد حكومة كارلوس الخامس فيما بعد. وخلال الفترة من عام ١٥١٢ إلى١٥٢٢ جعل أفراد الجماعات ضحاياهم المفضلة من المدجنين ثم اضطروهم إلى عملية

تعميد جماعية(*). وهيأت عملية التعميد هذه إجابة عن تساؤل حــول أسباب الثورة . إن هجمات مــسلمي شــمال إفريقيــا الــذين كــان الموريسكيون يعتبرون جواسيس لهم ، والحاجة إلى إيجاد كبش فداء أو مسئول عن داء الطاعون، وكان كبش الفــداء هــذا يتمثــل فـــى اللوطيين والأجانب والمسلمين. وكانت الثورة أيضًا شكلاً من أشـــكال مناهضة السادة (النبلاء)، لأن المدجنين كانوا مصدر دخل السادة. فقد كانت عمليات التعميد صورة من صور الإضرار بالسادة، وبالفعــل، ما إن تم سحق حركة النقابيين حتى تــصدى الــسادة لفكــرة إلغــاء عمليات التعميد القسرية.

ثمة محرك آخر يجب أن يوضع فى الاعتبار هــو الاعتقــاد بعودة المسيح، وهو اعتقاد ظل سائدًا على مدى القــرن فـــى شــبه الجزيرة، فقد كان الأمل فى عودة المسيح ينطوى على وعد بمرحلـــة زمنية تغمرها السعادة، تسبق نهاية العالم، مرحلة يسود فيها الــسلام والعدل، يعتنق فيها الكفار جميعهم دينًا واحدًا. ويفترض فيهـــا زوال الإسلام على وجه الخصوص.

انتشرت عقيدة عودة المسيح أيضًا بين المواطنين الموريسكيين

---

(*) كان الهدف من تعميد المسلمين جماعيا هو الإضرار بمصالح النبلاء، فعندما يتحول المسلم إلى المسيحية فلن يكون بحاجة إلى دفع ضرائب للنبلاء. (المراجع)

وكانت بمثابة عامل على قدر من الأهمية في حرب البُشرّات Alpujarras . وفي تلك الأثناء، في الوقت الذى كان الناس يترقبون فيه عودة المسيح، لعب انتشار نبوءات سان إيسيدورو San Isidoro بشأن ضياع إسبانيا ثم استعادتها من الإسلام دورًا محوريًا. استغل هذه النبوءات أيضًا جماعات قشتالة Comuneros De Castilla، وكان أفراد الجماعات يرون أن القضاء على السادة قد يساعد على نجاح مبدأ المساواة، وأن تعميد المدجنين يساعد على توحيد جميع المؤمنين تحت لواء الدين الحقيقي.

بعد انتهاء حركة التمرد، طرحت مشكلة مدى جدوى عمليات التعميد التى تزعمها أبناء الجماعات أنفسهم، وعلى الرغم من الموقف المعارض الذى اتخذه السادة (النبلاء)، وسلطات فالنسيا ، رأت لجنة تضم عددًا من رجال اللاهوت والقانونيين في اجتماعات عقدتها في مدريد خلال شهرى فبراير ومارس، ورأسها الإمبراطور شخصيا، رأت في جلستها الأخيرة الموافقة على صحة التعميد.

الأمر كان يتعلق في الحقيقة بخطة الملك كارلوس والمفتش العام ألونسو منريكى Alonso Manrique قبيل اجتماع لجنة مدريد هذه، وذلك في ظل ظروف سياسية تميزت بإعادة ترسيخ وضع الدولة، في الوقت الذى تم فيه القضاء على الأزمات التى أثارها

الطائفيون والنقابيون. وأصـــدر البابـــا كلمينتـــى Climente الـــسابع مرسومًا بابويا بعنوان اشـــتمل علـــى مخطـــط لتنـــصير المـــدجنين وتعميدهم، كما تضمن تحرير الملك كارلوس الخامس من قسمه بعدم فرض التنصير القسرى.

ولما توصلت اللجنة أولاً إلى إيجـــاد حـــل لمـــشكلة التعميـــد القسرى، قامت بالتوفيق بين الكنيسة وبين الذين عادوا إلـــى اعتنـــاق الإسلام، وأخيرًا أمرت بتنصير مدجنى فالنسيا أولاً، ثـــم المـــدجنين المقيمين فى المناطق التابعة لتاج أراغون، ولكنهـــا حرصـــت علـــى حماية مصالح السادة (النبلاء) بقدر الإمكان.أما الهجرة ، وهى البديل المطروح، فإنها كانت مستحيلة من الناحية العملية(*)، ولم يكن أمـــام المدجنين سوى حياة العبودية لو أرادوا الفكاك من التحول الدينى.

ومع ذلك استطاع السادة الأراغونيون أن يحصلوا على بعض التيسيرات ، فبعد مفاوضات طويلة استمرت حتى شهر ينـــاير عـــام ١٥٢٦، وبعد دفع مبلغ من المال قدره ٤٠٠٠٠ دوقية حصلوا علـــى موافقة بعدم تدخل محكمة التفتيش، وعلى أن يحصلوا خلال السنوات العشر التالية على تصريح بمواصلة استخدام لغتهم وارتداء أزيـــائهم،

---

(*) كانت شروط الهجرة هى ألا يسمح للموريسكى ببيع أراضيه الزراعية ولا عقاراته، ولم يكـــن يسمح له كذلك بحمل نقود أو جواهر. من ناحية أخرى كان أصحاب السفن يريدون تحـــصيل أجرة السفر من الموريسكى ؛ لهذا كانت الهجرة مستحيلة من الناحية العملية. (المراجع)

وأن تكون لهم مقابر مختلفة، كما حصلوا على موافقة على زواج أبناء العمومة...إلخ.

تحققت بذلك وحدة دينية من الناحية النظرية، وذلك على حساب إثارة مشكلة موريسكية سوف يتبين مدى صعوبة إيجاد حل لها. فقد كان المسيحيون الجدد يفتقرون إلى التربية الدينية، وتنقصهم أى رغبة فى أن يكونوا مسيحيين. أضف إلى ذلك أنه فى حالة احتمال اندماجهم، فإنهم سوف يصطدمون برفض من جانب المجتمع المسيحى القديم، وبمصالح النبلاء. فاعتناق المسيحية لا يضمن لهم الاندماج الكامل داخل المجتمع القشتالى ولا يمكّنهم من الخروج من دائرة التهميش، ولذلك لم يكن لدى الموريسكيين ما يكفى من الحوافز التى تجعل منهم مسيحيين صالحين. لم يكفل الموقف المتشدد الذى اتخذته قطاعات من الكنيسة تأييدًا للتاج كسر تلك العقبات، ولا التغلب على الموقف السلبى الذى وقفه جانب كبير من رجال الكهنوت. كان موريسكيو أراغون أكثر تهاونًا، ولكن انفجرت ثورات فى فالنسيا فى الجنوب، فى سلسلة جبال بناغواثيل **Benaguacil** وبصفة خاصة فى سلسلة جبال إسبادان فى مقاطعة كاستيون ، حيث قامت حرب عصابات، تمكنت القوات النظامية من سحقها فى الأشهر الأخيرة من عام ١٥٢٦. وبانتهاء ذلك العام لم يبق مسلمون بشكل قانونى أو معترف بهم بكونهم مسلمين على الأراضى الإسبانية،

وعندئذ بدأت مرحلة تميزت بممارسات قهر مسيحية، تقابلها مقاومة موريسكية، إضافة إلى بدء مرحلة التنصير والتكيف مع الثقافة المسيحية التي استهدفت أقلية بقيت محصورة تمامًا على ما هي عليه.

**تعليم الإنجيل والتنصير :**

لم يبق في شبه الجزيرة مسلمون يحملون اسم مسلمين اعتبارًا من عام ١٥٢٦، وبدأت مرحلة استمرت نحو ثلاثين عامًا ركزت فيها السلطات المسيحية جهدها الأساسي في العمل على تثقيف أولئك الذين دخلوا المسيحية مؤخرًا وتنصيرهم. وقد لعبت تضاريس مملكة ليون الجغرافية، إضافة إلى جهود النبلاء التي استهدفت حماية المسلمين، دورها في وضع عراقيل كبيرة عطلت دخول المبشرين وموظفي السلطة المسيحية، مما ساعد المسلمين على الاحتفاظ بنمط الحياة والثقافة التقليدية الخاصة بهم بأكبر قدر ممكن، إضافة إلى الحفاظ على إقامة شعائرهم الدينية. واحتفظت طوائف الموريسكيين بالتنظيم الهيكلي للجماعات كلما كان ذلك ممكنًا، بما فيها من الوكلاء الذين كانوا يتولون عمليات التفاوض مع ممثلي الكنيسة، أو النبلاء، أو البلديات. واعتبارًا من العقد الذي بدأ عام ١٥٦٠ كلف مجلس محاكم التفتيش وكلاءه في الأراضي التابعة لتاج أراغون (حدث الشيء نفسه في غرناطة منذ عام ١٥٢٩) أن يُحكموا الرقابة

والممارسات القمعية على الفقهاء، وعلى من يذبح من القصابين طبقًا للشريعة الإسلامية، والقابلات الموريسكيات، وعلى الوجهاء في الأحياء الخاصة بالمسلمين، أي كبار العائلات الموريسكية المهمة ، الذين كان لهم دور مهم في تحقيق الترابط الديني داخل الجماعة، أي أن الغرض من ذلك هو تفكيك أنظمة الجماعات القديمة. فلجأت تلك الجماعات إلى ممارسة أنشطتها سرا، وبحماية من جانب النبلاء الذين مثل بعضهم أمام محاكم التفتيش بتهمة التستر على الموريسكيين. وصل كارلوس الخامس إلى غرناطة في شهر يونية (حزيران) من عام ١٥٢٦، وظل هناك حتى شهر سبتمبر ، واكتشف من خلال مقابلاته ممثلين سواء للمسيحيين أو الموريسكيين مدى حجم المشكلة وضخامتها، وما يكتنفها من تعقيدات. ولجمع أكبر قدر من المعلومات أمر بإجراء عملية استقصاء في المنطقة، وكلف به غاسبار دي أبالوس وأنطونيو دي غيبارا، وكشف الاستقصاء عن وضع مترد ، فالموريسكيون يقاسون من الجباية غير القانونية بصفة دائمة، كما يعانون من كل أشكال سوء المعاملة، ويتعرضون لأعمال السلب والنهب، كذلك تتعرض النساء إلى انتزاع الحجاب في الشوارع... إلخ. وفي ظل تلك الظروف عقدت جمعية الكنيسة الملكية (نوفمبر – ديسمبر ١٥٢٦) اجتماعًا في غرناطة، كان بمثابة المرجع الأساسي الذي يستعان به لاتخاذ قرارات من شأنها وضع نهاية

للانتهاكات التى يتعرض لها الموريسكيون، ووضـــع الخطــط التـــى تحقق عمليات التنصير. فى الوقت نفسه تم توسيع نطـــاق القـــوانين السابقة وتوحيدها للتصدى للثقافة الإسلامية، كما تقرر إدخال محكمة التفتيش.

كل ذلك تضمنته فتوى اضطلع بهـــا الـــدكتور غالنـــديث دى كارباخال وتتناول مـــا يلـــى : أولاً تحـــديد الطقـــوس والـــشعائر الموريسكية والتى ينبغى استئصالها. ثانيًا تحديد واجبـــات المطـــران والأحبار. ثالثًا الإعلان عن إدخال محكمـــة التفتـــيش فـــى مملكـــة غرناطة. رابعًا وخامسًا، توجيه الكهان والضباط غيـــر الكهنـــوتيين حتى لا يتعرض الموريسكيون للإهانة أو لعمليات السلب والنهب. أى أنه مزيج من استعمال اليد القوية والإجراءات القمعية، ومن إجراءات تكفل الحماية وتبدو رحيمة. وعمومًا، فإن ما تنطوى عليه الفتوى أن كل ما هو مخالف عن عالم المسيحى القديم فى الدين، أو فى العـــــادات، أو فى العقلية أو فى اللغة كان يقع تحت طائلة العقاب الصارم.

ولكى نستوضح الأمور بصورة أفضل فإننا نرجـــع إلى فتـــرة ما بعد الاستيلاء على غرناطة مباشرة، عندما شرع الراهب هرناندو دى تالابيرا، كبير أساقفة غرناطة فـــى القيـــام بتنـــصير المـــسلمين ووعظهم، لتحقيق الاندماج شيئًا فشيئًا، حيث قام بإعداد كهنة يتحدثون

بالعربية، ويظهرون بالمظهر المثالى الذى يتناسب مع وضعهم. أبدى تالابيرا احترامًا لعادات المسلمين واحتفالاتهم، مثل حفلات السمبرا zambra (حفلات غنائية وموسيقية)، وبل وصرح بها فى احتفالات عيد القربان. وأما قيام ثيسنيروس باتخاذ سلسلة من الإجراءات المتشددة والسريعة فقد كان له علاقة ببعض الحيازات الملكية وبجدل دار فى إسبانيا فى ذلك الحين بشأن الموريسكيين بل وبالهنود فى أمريكا أيضًا. الأمر كان يتعلق بإيضاح إلى أى مدى كان الدين مجرد عقيدة، بمعنى أنه كان عبارة عن معتقدات وطقوس، بمقدورها أن تفرض نفسها على غيرها من العادات الصحية والغذائية، وعلى طريقة أخرى للملبس، أو على لغة أخرى، أو على هيكل عائلى آخر؛ أى أن الدين كان أكثر من هذا، وأن التحول الدينى كان يعنى تحولاً كاملاً فى كل السمات الثقافية لمن تحول عن دينه إلى دين آخر.

بدأ الموقف المسيحى يجنح إلى القضاء نهائيا على كل ما يتعلق بالثقافة الإسلامية اعتبارًا من أوائل القرن، وذهب إلى التعميم الشامل للغة الإسبانية، وإلى التنصير الكامل. ويمكن تأريخ المراحل المهمة فى مسيرة هذا التطور، وهى لا تتعلق بالكنيسة وبالأسقف تالابيرا وحدهما، بل تتعلق أيضًا بالجيل الأول من الغزاة والنبلاء الغرناطيين. كان أول ماركيز فى مونديخار **Mondejar** قد مات عام ١٥١٢. ومنذ ذلك الحين أخذ وضع نبلاء غرناطة فى

التراجع أمام المسئولين بمحكمة غرناطة، وكان هؤلاء يتصدون للدفاع عن مصالح تختلف عن مصالح النبلاء (خاصة فيما يتعلق بتوحيد أسلوب تطبيق القانون والتشدد فى تطبيقه). لم يكترث هؤلاء بمدى تمسك الموريسكيين بعاداتهم أو بملبسهم أو باللغة التى يتعاملون بها، فقد بدوا أكثر مرونة، وغالبًا ما كانوا يعتبرون الإجراءات التى كان يتخذها المسئولون بالمحكمة والكهنة، إنما هى إجراءات غير مناسبة، بل إجراءات هزيلة. وكانوا يؤيدون حقيقة أولئك الذين كانوا يعتبرون أن طريقة الملبس التى يتميز بها الموريسكيون لا علاقة لها بالدين إلا أن كارلوس الخامس بدا فى غرناطة فى عام ١٥٢٦ أكثر تساهلاً، وتوصل الموريسكيون إلى اتفاق مع الملك يقضى بالآتى : دفع مبلغ كبير من المال مقدمًا، استطاعوا به تعطيل تنفيذ الإجراءات الخاصة بمنع اللغة والتوقف عن ممارسة العادات، كما توصلوا إلى عدم تعرض محاكم التفتيش لهم بمصادرة ممتلكاتهم. وتسبب التكاسل فى أن تكون كل الإجراءات مجرد حبر على ورق.

جاءت بعد ذلك مرحلة سادها هدوء نسبى ؛ فقد تعايش الموريسكيون والمسيحيون القدامى على مدى العقود الثلاثة التالية فى ظل القواعد والأسس التى وضعت عام ١٥٢٦، وبدا اتجاه المسيحيين ينحو إلى الاندماج والتكيف أكثر منه إلى القمع. ومع ذلك لم تطبق جميع الاتفاقات التى أبرمت فى عام ١٥٢٦، وذلك بسبب دأب

محكمة التفتيش على مطاردة الموريسكيين فـــي فالنــسيا منـــذ عـــام ١٥٢٨، وفي غرناطة عام ١٥٢٩، وبذلك كانت حملات التنصير هى السمة المميزة لتلك الفترة.

وضعت المجالس النيابية الأسس فى قشتالة على النحو التالى : في سيغوبيا **Segovia** عام ١٥٢٣، وفى بلد الوليــد **valladolid** عـــام ١٥٣٧ ، وفي أراغون ومـــانثون **Aragon y Manzon** عـــام ١٥٧٣. وعلى الرغم من أن الضوابط اقتصرت على حسن النوايا نظريًا، ولم تخرج إلى حيز التنفيذ (الزيارات الرعوية للكنائس القرويـــة " مـــثلاً) بذلت جهود تبـــشيرية وتربويـــة كبيـــرة بـــلا توقــف، اســتهدفت الموريسكيين. خصصت جلسات مجمـــع وادى آش **Gudix** الكنــسية، التى دعا إليها الأسقف مارتين دى أيالا **Martin de Ayala**، جهودهـــا لقضية الموريسكيين. ثم أصدرت قرارات من شأنها أن تقضى علـــى الممارسات الثقافية، وتناولت مستويات التربيـــة الدينيـــة بالتحديـــد، والطرق التى تتبعها، كما تناولت أيضًا نشاط الكهان... إلخ وأيـــضًا أنشئت مدارس خاصة بالموريسكيين، وأمر أسقف غواديكس، مارتين دى أيالا، بوضع "منهج للعقيدة المسيحية باللغة العربيـــة"(*). كانـــت الجهود كبيرة ومستمرة، وعينت السياسة الملكية متخصصين حقيقيين

---

(*) لدينا نسخة من هذا الكتاب وهو مترجم بشكل حرفى يدعو إلى الإضحاك. (المراجع)

فى القضية الموريسكية لهذا الغرض، جميعهم من كبار رجال الـدين المتميزين مثل أنطونيو دى غيبـارا **Antonio de Guevara** وغاسـبار دى أبالوس **Gaspar de Avalos**، ومارتين دى أيالا **Martin de Ayala** السالف ذكره، وكان هـؤلاء هم القـائمون على سـياسة الانـدماج أو التكيف، وقاموا فيما بعد بدور لا يستهان به فى ترنتو **Trento**.

وفى الفترة نفسها قامت فى فالنسيا خطة تبـشيرية اسـتهدفت الموريسكيين، وذلك بتشجيع من جانب أنطونيو راميريث دى هارو، وانطلقت تلك الخطة عن طريق شبكة من كنائس القرى. وهذه الخطة كانت أكثر اعتدالاً من الخطة التى وضعت للغرنـاطيين. ونجحـت الاجتماعات التى عقدها مجلس نواب فالنسيا فـى أن تحـصل مـن كارلوس الخامس على امتيازات واختصاصات مختلفة، من شأنها أن تحد من عمليات مصادرة الملكيات، والعقوبات التى كانت تفرضـها محكمة التفتيش.

تحدد دور محكمة التفتيش تجاه الموريسكيين بصفة خاصة فى مجلسى طليطلة ومدريد عامى ١٥٣٩ و ١٥٤٢، وقد عقـد مجلـس مدريد على أساس ما جاء فى مجلس فالنسيا النيابى فى العام نفـسه. وقد حصل راميريث دى هارو فى ذلك المجلس على مهلة لا تتـدخل خلالها محكمة التفتيش، بلغت ستة عشر عامًا، يجرى خلالها تربيـة وتوجيه الموريسكيين. وفى طليطلة تم بحـث مطالـب موريـسكيى

غرناطة، التى طالبوا فيها بالحد من مسلك محكمة التفتيش، علـــى أن تجرى محاكماتهم على إقامة الاحتفالات الدينية الرئيسية، لا بـــسبب الممارسات الثقافية، ورفض المجلس الطلـــب الخـــاص بالحـــد مـــن الإجراءات، باستثناء متابعة حفلات السمبرا، طالما لم تتضمن الدعاء لمحمد.

وعمومًا جنح الإمبراطور خلال تلك الفترة، وتحـــت ضـــغط المشاكل فى ألمانيا، وبسبب احتياجه إلى الأموال، إلى السماح بقـــسط من التنازل لفترة معينة، وكان ذلك يتطلب فى الغالب تعويضًا ماليـــا. وهكذا، وبالإضافة إلى التنازلات التى منحت للفالنسيين، كان مؤيـــدًا لإقرار المطالب التى تقدم بها ثانية ماركيز مونديخار **Mondejar** عام ١٥٤٣ فى غرناطة، ووافق أيضًا على إصدار العفو عـــن الجـــرائم دون حاجة إلى مصالحة ، وكان لهذا الأمر أهميته، لأنه كـــان مـــن السائد أنه فى حالة إتمام المصالحة مع الموريسكيين بعـــد ارتكـــابهم لجريمة ممارسة الشعائر الإسلامية، ثـــم محـــاكمتهم أمـــام محكمـــة التفتيش، فإنهم يعتبرون من محترفى الإجرام إذا ضبطوا فى جريمـــة مماثلة ؛ وبالتالى يمكن تنفيذ حكم الإعدام فيهم. أيضًا منح مهلة مداها خمسة وعشرون عامًا لا تصادر فيها الممتلكـــات ولا تطبـــق فيهـــا عقوبات نقدية، مقابل دفع مبلغ مادى، وقد ووجه ذلك بمقاومـــة مـــن جانب محكمة التفتيش ومن جانب البابا.

ومع ذلك، فإن العناد الذى كانت تصطدم به كلتا الطائفتين والصراع على المصالح التى كانت وراء مختلف أجهزة السلطة (الكنيسة، والبابا، والنبلاء، والتاج) كل ذلك كان يتجه إلى أن يطفو على السطح عندما تسنح أدنى فرصة. مثال لذلك تمثل فى اجتماع عقد فى طليطلة، خلال شهرى فبراير ومارس عام ١٥٣٨، لدراسة مطالب الموريسكيين فى غرناطة من محكمة التفتيش. ولم يحصل هؤلاء من مطالبهم الكثيرة سوى على التمييز بين المهرجانات أو الاحتفالات الإسلامية واليهودية. (فقد كانت التهم توجه دون تمييز)، كما صرحوا بحفلات السمبرا. لم تتوفر الرغبة فى منح الأقلية الموريسكية أى تنازلات، وكان كل من يتجرأ على الدفاع عنهم، يواجه بمعاملة تخلو من أى اعتبارات مثل ما حدث لماركيز مونديخار **Mondejar** شخصيا .

اتسمت الفترة التى بدأت عام ١٥٢٦ بحالة من التوازن الصعب وغير المستقر، حالة من الوضع الراهن تم كسرها فى أعوام ١٥٥٥-١٥٦٨، لما لوحظ أن الفجوة التى كانت تفصل بين الطائفتين، على الرغم من سياسة الاندماج، وعلى الرغم من المبالغ التى كان يدفعها الموريسكيون لكى يتركوا فى أمان، قد ازدادت اتساعًا. أثار ذلك الفشل الأحقاد بين السلطات المسيحية، وأفرز إحساسًا بأن الجهد الذى بذل كان هباء، وبالتالى يتعين اتخاذ إجراءات

أكثر قمعية. وانتهت فترة التسامح النسبى خلال فترة ما بعد عام ١٥٢٦ بوصول فيليبى الثانى إلى العرش عـــام ١٥٥٥ تقريبًـــا، وبتـــصاعد السيطرة الإسلامية على البحر المتوسط.

## القمع والطرد :

أصدر فيليبى الثانى فى عام ١٥٦٧ مرسومًا تـــضمن اتخـــاذ إجراءات قمعية، استمرت وقتا طويلاً، كما رأينـــا ، يحظـــر علـــى الموريسكيين فى غرناطة استخدام اللغة العربية، حـــديثًا أو كتابـــة، ويمنع تداول الكتب أو الوثائق المحررة بالعربية، أيا كان محتواهـــا. ويحظر عليهم ارتداء ملابـــسهم التقليديـــة ، "ومـــا يـــدعى باللبـــاس الموريسكى"، كما يحظر على النســـاء تغطـــية جـــزء من الوجـــه، ولا يستخدمن الحناء فى نقش الأيدى أو الأقدام، أو فى صبغ الشعر، ويحظر عزف الموسيقى الموريـــسكية فـــى حفـــلات عقـــد القـــران والزفاف. أيضًا حرم عليهم استخدام الحمامات، أو اســـتعمال أســـماء وألقاب عربية، وصدرت الأوامر بأن يترك الموريـــسكيون أبـــواب دورهم مفتوحة، إضافة إلى منعهم من تملك العبيد. وقد أثـــار ذلـــك ذهولاً كبيرًا فى غرناطة.

أدى هذا المرسوم إلى ظهور نص اكتسب أهمية غير عاديـــة، تمثل فى عريضة قدمها النبيل الموريسكى نونييث مولاى إلى محكمة

غرناطة أكد فيها بالحجج أن اللباس الموريسكى لا يرمز إلى الدين، ولكنه شكل من أشكال التنوع أو السمات الإقليمية الخاصة بالمنطقة، إذ يختلف اللباس الغرناطى عن اللباس القشتالى أو الفالنسى. وأن العربية لا تعنى الإسلام، لأن المسيحيين فى الشرق يتحدثون العربية، وأن وضع الغرناطيين اللغوى، إنما هو علامة تمييز إقليمية شأنهم فى ذلك شأن القطالونيين أو الجليقيين **Gallegos**، فهم يتحدثون بلغة مختلفة دون أن يكون لهذا علاقة بالعقيدة. إذن كانت هذه محاولة من جانبه، أراد أن يفصل فيها تلك المعالم الثقافية الغرناطية، عن الهوية الدينية، لكى يجمع الموريسكيين فى هوية إقليمية لا تتناقض مع المسيحية على الإطلاق، وأراد أن يوضح أيضًا أن الغرناطيين لم يكونوا متفردين، لأن أبعاد التباين واضحة فى اللغات، أو الأزياء، أو العادات بين مختلف أقاليم إسبانيا، وشدد كثيرًا على أن الموريسكيين وعاداتهم "ينتمون إلى الأرض". وأشار إلى أنه من الصعوبة بمكان تغيير الاسم على وجه الخصوص، لأن ذلك يعنى ضياع الأسر، والأنساب، أحد أركان الهوية الموريسكية، وكذلك الارتباط بالجماعة. وبمنع اللغة أيضًا سوف تضيع الوصايا، ومحررات الأراضى، والعقود. فهل يتساوى الجميع بدون نسب وبلا ميراث أو عبيد؟ هكذا سجل النبيل الموريسكي احتجاجه. وإن هذا المرسوم في مجتمع معروف بتعدد الطبقات، كالمجتمع الإسبانى

المعاصر، من شأنه أن يحكم على الموريسكيين بالتهميش وجعلهم فى أدنى طبقات المجتمع إضافة إلى محو سماتهم الثقافية الخاصة وإلى الأبد(*) . إلا أن أحدًا لم يعره أى اهتمام.

كان ذلك المرسوم بمثابة الشرارة التى أججت نيران حرب البشرات فى عام ١٥٧٨، ذلك الإضراب المسلح الذى قام به الموريسكيون فى الجبال من غرناطة إلى المرية، أدى إلى حرب أهلية غاية فى العنف بين كلا الطرفين، استمرت طوال عامين. وبات من الضرورى أن يتدخل جيش السيد خوان دى أوستريا لكى يقضى على ذلك التمرد، وانتهى الأمر فى أواخر عام ١٥٧٠ إلى إقصاء جميع موريسكيى غرناطة إلى قشتالة. وأسفرت عملية الإقصاء تلك عن سقوط أعداد كبيرة من الموتى، نظرًا لتنفيذها فى أسوأ ظروف جوية من شتاء (١٥٧٠-١٥٧١) ضد سكان معدمين أنهكتهم حرب عامين متواصلين.

تشتت موريسكيو غرناطة فى مجموعات صغيرة، فى أراضى قشتالة، والتقوا بسكان من "الموريسكيين القدامى" وهم أقل إثارة للشغب، ووصلوا إلى مرحلة متقدمة من الاندماج والتآلف مع المجتمع المسيحى والقشتالى. وأسفر التقاء الموريسكيين الغرناطيين

---

(*) النص "الكامل" لمذكرة نونييث مولاى موجود فى كتاب مرثيديس غارثيا أرينال "الموريسكيون الأندلسيون" ترجمة وتقديم جمال عبد الرحمن، المشروع القومى للترجمة ، المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٣ . (المراجع)

بالموريسكيين القدامى عن صراعات كبيرة، أضافت إلى المشكلة الدينية مشكلة اجتماعية، ترتبت على قدوم جماعات محطمة ومعدمة تمامًا، كانت غريبة بل ونذيرًا يهدد القشتاليين. أدرك الموريسكيون القدامى أنهم يحيط بهم ذلك الرفض، وتعرضوا لموجة من قهر محكمة التفتيش اعتبارًا من عام ١٥٧٠. لجأت محكمة التفتيش إلى استخدام أشد وسائل العنف ضد الموريسكيين طوال النصف الثانى من القرن السادس عشر وخلال سنوات ما قبل الطرد . مارست قهرًا لم يستطع أحد الفكاك منه في أى مكان، فهى لم تستهدف وأد الهرطقة فحسب، بل استهدفت تفتيت الصلات العائلية، وكسر تلاحم الجماعات. تراوحت أحكام محكمة التفتيش على الموريسكيين (فيما عدا نسبة ضئيلة جدا ألقى بها فى المحرقة) ما بين الغرامات المادية ومصادرة الممتلكات. وكانت عمليات الإبلاغ التى كان يدلى بها المتهمون تحت وطأة التعذيب عن ذويهم وجيرانهم، وكذلك عمليات توقيف طبقة الصفوة، إضافة إلى الأوضاع الاقتصادية المتردية، مع حالات الترويع التى أثارتها محكمة التفتيش، كل ذلك كان من الأسباب الرهيبة والمدمرة للجماعات الموريسكية.

وفضلاً عن ذلك، فإننا كنا فى أسوأ سنوات المواجهة مع الأتراك، حيث يتطابق ما يشكله هؤلاء من تهديد مع ما يشكله الموريسكيون، أو بالأحرى ما يشكله الغرناطيون والفالنسيون. فقد صدرت أوامر فى عام ١٥٧٥ بألا يصرح للموريسكيين في فالنسيا،

بحمل أى نوع من أنواع السلاح. وكانت عمليات التحرش التى كـان يقوم بها قراصنة الشمال الإفريقى على السواحل الشرقية تشغل كـلاً من السلطات والسكان المسيحيين المحليين، وكان هـؤلاء القراصـنة يسهلون للموريسكيين عمليات الهـروب، مقابـل التواطـؤ معهـم لإرشادهم إلى منافذ ينفذون منها.

اندلعت حرب فى أراغون مع الموريسكيين (عمال الأراضـى المنخفضة من شاطئ نهر الإبـرو، عـام ١٥٨٥) وبـين الرعـاة المسيحيين فى الجبال. وكان الموريسكيون قـد أجـروا اتـصالات وتحالفات مع البروتستانت فى إقليم بيرنBearn الفرنسى. ازداد ذلك الوضع تدهورًا وتأججت الحرب نتيجة تعالى أصوات جماعات مـن الخبراء بالشئون العامة وهم من نسميهم فى أيامنـا هـذه بـالقوميين المتطرفين.

بدأت فى أواخر عقد ١٥٨٠ مناقشـات حول إمكانيـة اتخـاذ قرار بشأن طرد الموريسكيين فى إطار جلسات مختلـف المجـالس واللجان. فقد كان الخوف والغضب قد انعكـسا علـى سلـسلة مـن الأسباب والذرائع بمشروعية ذلك الإجراء الذى مـا زالـت هنـاك عشرون سنة أمامه حتى يتم تنفيذه، وهذه الذرائع والأسباب هى : أن الموريسكيين غير قابلين للتكيف، وأنهم يكرهون كل ما هو مسيحى، وأنهم لم يدينوا بالولاء للملك وإنما يتحالفون مع الأتـراك ومـسلمى شمال إفريقيا، وبالتالى فإنهم يشكلون خطرًا على تـوازن المجتمـع

المسيحى، وأنهم لن يقبلوا التكيف مع العادات وأسلوب الحياة الذى يتميز به المجتمع المسيحى، ومع ذلك كان عدد كبير من موريسكيى القشتاليين، وإكستريمادوراء ومرسيه، بل وفى أراغون، وحتى غرناطة، قد تبلور وتكيف تمامًا.

كان موضوع الطرد قد تم طرحه ومناقشته باعتباره احتمالاً ممكنًا، في مجلس الدولة في لشبونة، وذلك فى عام ١٥٨٢. كان مجرد فكرة، احتاج نضوجها لفترة طويلة. ولقد صدر أول مرسوم بالطرد عام ١٦٠٩، وتم تطبيقه بالطبع على موريسكيي فالنسيا. وخلال الفترة من ١٦١٠ إلى ١٦١٤، تم طرد جميع الموريسكيين من شبه الجزيرة، كان آخرهم موريسيكو ريكوتى **Ricote** ومرسية، وكانوا قد اعتنقوا المسيحية طواعية من قبل بموجب مرسوم عام ١٥٠٢ الذى أصدره الملكان الكاثوليكيان (فرناندو وإيسابيل) . ويقدر عدد المطرودين بنحو ٣٠٠٠٠٠ موريسكى، انتهى المطاف بعدد كبير منهم فى بلدان جنوب البحر المتوسط وهؤلاء هم موضوع الفصل القادم.

**مقاومة طمس الهوية :**

سبق أن أشرنا إلى مقاومة الموريسكيين، والتى تجلت فى شكل ثورة مسلحة وفى عمليات الهجرة. وهنا سوف أركز على صورة

أخرى من صور المقاومة إزاء الضغوط التى تمثلت فى عمليات التبشير والتنصير ، على التمسك بالملامح الثقافية والدينية الإسلامية.

فقد ظلت أعداد كبيرة من الموريسكيين تمارس شعائر الدين الإسلامى خفية، وهو ما عرف بالإسلام الخفى. فقد كان يتردد أن الموريسكيين يؤمنون بشرعية التمسك بالدين الإسلامى سراء، وإن كانوا يؤدون الشعائر المسيحية ظاهريا، وذلك استناذا إلى مبدأ "التقية" الإسلامى الذى يجيز إخفاء العقيدة فى حالة التعرض لضغوط خارجية ، فقد اضطرت جماعات دينية أخرى فى إسبانيا تحت وطأة محاكم التفتيش إلى إخفاء عقائدها وإلى تشريع ذلك، مثل اليهود المتنصرين، والبروتستانت والنورانيين **iluminados** وحتى الإيراسميين **erasmistas** .

ولكن تلك السرية أثارت بالفعل مشاكل خلقية وقانونية. ونرجع هنا إلى وثائق توفرت لدينا، وتتضمن استشارات طرحها مدجنون وموريسكيون، حول إمكانية الحياة فى ظل الظروف الجديدة التى تفرضها السلطة المسيحية، فى الوقت الذى ينتمون فيه إلى مجتمع المؤمنين. وقد طرحت هذه المعضلة نفسها أيضًا بالنسبة للمهاجرين إلى شمال إفريقيا الذين كانوا يرغبون فى العودة إلى شبه الجزيرة، بعد أن تملكهم الإحساس بالعجز عن التكيف. فى عام ١٤٨٤،

أي قبل الاستيلاء كلية على غرناطة، قامت جماعة من المسلمين ممن سبق أن هاجروا إلى المغرب، واكتشفوا أن الوضع هناك غير موات لهم، بطرح استشارة شرعية حول إمكانية العودة إلى إسبانيا، من وجهة النظر الدينية، وبعد ذلك بقليل أي في عام ١٤٩٥، طرحت جماعة أخرى من المسلمين ممن كانوا يرغبون في البقاء بالمناطق التي استولى عليها المسيحيون مؤخرًا، سؤالاً مماثلاً. وجاءت الإجابة عن كلا السؤالين ضمن فتويين أفتى بهما مفتي مدينة فاس المغربية أحمد الونشريسي المتوفى عام ١٥٠٨، وكان متشددًا جدا مع الأندلسيين : "البقاء في بلد استولى عليه الكفار محرم بحكم الدين، كتحريم أكل الميتة، والدم، ولحم الخنزير".

وبعد بضعة أعوام، أصدر مفتي مدينة وهران الجزائرية فتوى أخرى إلى المسلمين الإسبان الذين اعتنقوا الدين المسيحي بمرسوم . كانت هذه الفتوى على عكس ما سبقها ترمي إلى تهدئة أولئك الذين أصبحوا في مثل ذلك الوضع الحرج ومواساتهم، حضهم فيها على أن يكتموا إسلامهم في القلوب، وألا يعلموا أطفالهم الدين الإسلامي حتى يبلغوا سن الحلم، ويبلغوا من النضج ما يجعلهم قادرين على كتمان ما يبطنون(*).

(*) انظر النص الكامل للفتوى بوجمعة مفتي وهران في كتاب غارثيا أرينال "الموريسكيون الأندلسيون" ترجمة وتقديم جمال عبد الرحمن، المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٣ . (المراجع)

وأصدر علماء المذاهب الأربعة الإسلامية فى القــاهرة عــام ١٥٠٠ تقريبًا أربع فتاوى حول أوضاع المسلمين الذين يعيشون تحت سلطان حكومة مسيحية فى إسبانيا. وفيمـــا يبـــدو أن تلـــك الفتـــاوى صدرت بناء على طلب بعض الموريسكيين الفالنسيين لدى مـــرورهم بالقاهرة، وهم فى طريقهم إلى مكة لتأدية فريضة الحج. ونصت هذه الفتاوى على وجوب هجرة المســلمين فى أقرب فرصـــة ممـــكنة. فلا يجوز للمسلمين الإقامة بين الكفار، ولا ينبغى أن يقـسموا قـسم الولاء لسلطانهم؛ فإقامة المسلمين بين الكفار لا تمكنهم من أداء بعض الشعائر الإسلامية الأساسية. أى أن الإقامة بين الكفار شأنها شأن أكل الميتة والدم ولحم الخنزير ، والاتصال بالكفار فى حد ذاته إنما هـــو مصدر للعدوى. ولما وصل الموريسكيون المطرودون إلـــى شـــمال إفريقيا فى القرن السابع عشر، شعر السكان المحليون بغضاضة فـــى اعتبارهم مسلمين.

كان مستوى الثقافة العربية الإسلامية لدى مختلف الجماعـــات الموريسكية متباينًا، كما هو الحال بالنسبة للمـــدجنين، بـــين منطقـــة وأخرى، ومن عصر إلى عصر . فالمستوى فى فالنسيا غيره فـــى قشتالة، وبين أبناء جيل ما بعد عام ١٥٠٢، يختلف عما كان عليه من سبقوا عملية الطرد التى تمت عام ١٦١٠. فالموريسكيون الفالنسيون والغرناطيون كانوا يتحدثون العربية، وكـــانوا يخـــضعون لعمليـــات الختان، أما بالنسبة للقشتاليين فكان حـــالهم غيـــر ذلـــك، وبالنـــسبة

للغرناطيين الذين أبعدوا إلى قشتالة كان يتعين عليهم التوقف عن استخدام اللغة العربية وعن إجراء عمليات الختان بعد جيل واحد. علاوة على ذلك يتعين أن نضع فى اعتبارنا أن القطاع الأكبر من المصادر المتوفرة لدينا والتى نتعرف من خلالها على معركة مدى الاحتفاظ بالإسلام بين الموريسكيين، فهى ما أسماه ماركيث بيانويبا Marques Villanueva "بالمصادر المسمومة" : وثائق محاكم التفتيش، على سبيل المثال، أو تقارير ومذكرات أولئك الذين كانوا يبررون عمليات طرد الموريسكيين(*)... إلخ.

كانت محكمة التفتيش، إذا أحسنا الظن بنواياها وأساليبها، تحاكم الموريسكيين المشتبه بهم، أو من كان يثبت أنه من التيار الإسلامى "فقط"، وكانت تقدم تفصيلاً للممارسات الدينية، والصلوات، والعقائد، والثقافة، إضافة إلى نوايا الموريسكيين الذين كانوا يمثلون للمحاكمة. لقد ذكرت تلك الوثائق (إضافة إلى مصادر أخرى سوف نتعرض لها فيما بعد، وخاصة الأدب الألخميادو Aljamiado ) أن قطاعًا كبيرًا من السكان الموريسكيين كان يتمسك بالممارسات الإسلامية (بما فيها ممارسات كان يصعب أداؤها فى تلك الظروف، مثل الحج إلى مكة) فى إطار كيان أسرى وجماعى، وكانت تحرص على رعاية الجماعات. فقد أكد الكتاب المؤيدون لسياسة القمع

---

(*) انظر كتابه "القضية الموريسكية من وجهة نظر أخرى" ترجمة عائشة سويلم، مراجعة وتقديم جمال عبد الرحمن، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ٢٠٠٥ . (المراجع)

المتطرفة والطرد، أن جميع الموريسكيين لا يزالون مسلمين كما كانوا قبل التنصير، بل وأضافوا أيضًا بعض الحجج (مثل أنهم كانوا أسرع تكاثرًا) وهى حجة لم تثبت عن طريق مصادر أخرى، لكنها أصبحت معلومة متداولة.

لم يترك الموريسكيون المتأسبنون والمتنصرون إلا دلائل نادرة للغاية فى الوثائق، ولهذا يسهل بموجبها تكوين فكرة مشوشة عن الموريسكى "غير المتكيف" والمسلم المتمسك على الرغم من كل شيء. فالحقيقة لابد أن تكون شديدة التعقيد، كما سوف يتبين لنا عندما كان لزامًا على المطرودين أن يندمجوا فى المجتمعات الإسلامية بالشمال الإفريقى. كانت مقاومتهم ثقافية، واجتماعية، فضلاً عن كونها دينية، ساعد عليها رفض التكيف مع مجتمع الأغلبية الذى دأب بدوره على أن يمارس ضدهم سياسة اتسمت بالتمييز والتهميش والمطاردة. فى ذلك الوقت كان يتعين عليهم أن يتعايشوا مع اللغة، وأن يحاكوا العادات والتقاليد السائدة فى ذلك المجتمع، لكى لا يفطن أحد لوجودهم(*).

لقد انغمس الموريسكيون، مثلهم مثل المدجنين، فى غمار عملية دفع ثقافى، من شأنها أن تجعل منهم نموذجًا مغايرًا لأجدادهم

(*) لا أدرى هل تتبنى غارثيا أرينال هنا الرأى القائل بأن الموريسكيين تعرضوا لعمليتى إقامة ثقافية إحداهما فى إسبانيا والأخرى فى شمال إفريقيا؟ هذا الرأى تقول به لوثى لوبيث بارالت، وقد عارضنا هذه النظرية تمامًا. انظر : د. جمال عبد الرحمن "نص حول الجنس الموريسكى من تونس.." المجلة التاريخية المغاربية ، العدد ٧٧ – ٧٨ ، مايو ١٩٩٥ . (المراجع)

الأندلسيين. هذه العملية التثقيفية لا ينبغى أن نفسرها استشهاذا بمعالم الثقافة الأندلسية، أو الثقافة الإسبانية، ولا أن نعتبرها بالتالى وكأنهـا انهيار أو تدهور، بل باعتبارها صورة من صور المعايشة الـضاربة فى التأصيل قادرة على دمج عناصر من كلتا الحضارتين، بما يفـرز شيئًا جديدًا ومغايرًا.

وربما تمثل أوضح مثال لذلك التعايش أو التكامل، فـى الأدب الألخميادو alajamiada ، وهو أدب كتب باللغة الرومانثية (الإسبانية) بحروف عربية، تركزت فيه الألفاظ والمفاهيم الدينية العربية بـشكل عام، وكذلك فقرات كاملة من القرآن. أخذت العجمية مـن العربيـة أيضًا البناء التركيبى، والنمطى، والمعجمى، وما يتعلق بالمدلولات . إنها لغة خاصة، البديل الإسلامى للغة الإسبانية. والأدب الالخميـادو أدب ذو طابع تعليمى، يغلـب علـى موضـوعاته الطـابع الـدينى والتشريعى، ويستهدف نشر أسـس الـشريعة والعقيـدة الإسـلامية والمحافظة عليها بين الموريسكيين، كما يتناول تـاريخ أبطـال مـن التاريخ الإسلامى، وحكايات حماسية ترجع إلى فجر الإسلام، إضافة إلى قصص الأنبياء... إلخ.

أى أنه أدب يمكن أن نطلق عليه اسـم "التـاريخ المقـدس"، وتضمن إلى جانب هذه الموضـوعات، موضـوعات عـن الطـب

والسحر والنبوءات وأقوال ومناهج تربوية وخطط مسارية، أي توجيهات تحض على الهرب من إسبانيا. وتضمن أيضًا حكايات مثل قصة غراميات باريس وديانا المستوحاة من الأدب الإسبانى المعاصر فى ذلك الحين، وكان يعرفها الموريسكيون. ولما طرد الموريسكيون إلى شمال إفريقيا توقفوا عن الكتابة "بالألخميادو" ولكنهم احتفظوا بآدابهم الخاصة باللغة الإسبانية، اللغة التى كتبوا بها رسائل ذات طابع دينى، وأعمالا أدبية يتجلى فيها التأثير الإسبانى، ومقالات دينية ساعدت على عودة الموريسكيين المطرودين إلى الإسلام. وقد ترجم الموريسكيون المطردون كتبًا إسبانية إلى اللغة العربية ، منها على سبيل المثال كتاب عن المدفعية(*)، وموضوعات تقنية حظيت باهتمام البلاد المضيفة.

ثمة مثال آخر مهم للمعايشة، هو ما يسمى بإنجيل القديس برنابا، وهو إنجيل مختلق كتبه موريسكيون ، ويتناول تصحيحًا لرسالة المسيح طبقًا للمفاهيم الإسلامية، والتى تتركز حول صفته الإلهية، وتؤكد أن محمدًا هو المسيح المخلص الذى تحدثت عنه الكتب المقدسة. وفى الخط نفسه ، ولكن بشكل أكثر شهرة وأهمية لما كان له من ردود فعل كبيرة، كان موضوع الكتب الرصاصية.

---

(*) هو كتاب "العز والمنافع للمجاهدين فى سبيل الله بالمدافع" ترجمة الموريسكى أحمد بن قاسم الحجرى. (المراجع)

ففى عام ١٥٨٨ ترتب على انهيار منذنة المسجد القديم فـى غرناطـة، الكشف عن رق قديم من الجلد مكتوب عليه باللغة العربية، وتبع ذلك الكشف عن مجموعة من الألواح الرصاصية بعـد بـضع سـنوات منقوش عليها بحروف عربية غريبة، إضافة إلـى اكتـشاف بعـض رفات القديسين. لقد كان اكتشاف وثائق هذا الكشف المزعوم القديمة، مجرد عملية تزييف قام بها مثقفو الموريسكيين ؛ فهى تثبت أن عربًا كانوا موجودين في غرناطة فى زمن الحـواريين، وأنهـم اعتنقـوا المسيحية حقًا وفعلاً على يد سانتياغو Santiago شخصيا، وعلى أيدى تلاميذه.

لعل الهدف الواضح من عملية التزييف يتمثـل فـى تجنـب الطرد، خاصة أن تنفيذه بات وشيكًا، وذلك عن طريق إبطال مفهـوم "المسيحيين الجدد"، لأن الموريسكيين كان يمكن أن يكونوا أقدم فـى المسيحية، وأكثر أصالة من أى أحد آخر؛ وأنهـم أصـحاب الأرض الطبيعيين، حسبما ذكر فرناندو نونييـث مـولاى Fernando Nuñez Muley فى عريضته. وتضمنت الكتب الرصاصـية أيـضًا بعـض الأناجيل المزيفة التي تعظم من دور السيدة العذراء، والتـى تؤسـلم وتلغى تلك المفاهيم المسيحية التى يصعب علـى المـسلمين تقبلهـا، ومنها ألوهية المسيح وتقديس الصور. ولم يقتـصر التزييـف علـى الموريسكيين وحدهم، ولكنه تم بموجب تواطؤ أو مشاركة شخصيات تابعة للكنيسة الكاثوليكية، ذلك لأنه تضمن أيضًا دفاعًـا حـارًا عـن

عذرية مريم(*)، وعن وصول سانتياغو **Santiago** ، وكلتا القضيتين كانت تحظى بدفاع شديد من جانب الكنيسة الإسبانية. ولقد أسفر ذلك عن أسلوب خاص للتعايش جمع بين مسيحية متأسلمة (أو إسلام متنصر) وبين بعض الأفكار شديدة المناهضة للإصلاح. وقد أثار هذا الموضوع جدلاً كبيرًا بين من تصدى له (وعلى رأسهم أسقف غرناطة نفسه) ومن كانوا يصرون على أنها عملية تدليس، جدالا استمر طويلا حتى جنح الفاتيكان إلى اعتباره تزييفًا عام ١٦٣١.

ثمة محاولة مهمة في الخط نفسه، وهى رسالة كتبها الموريسكى الغرناطى ميغيل دى لونا **Miguel de Luna**، هو ورفيقه ألونسو دى كاستيو **Alonso de Castillo**، المترجم الخاص للملك فيليبى الثانى، إلى اللغة العربية، والتى تحمل عنوان : القصة الحقيقة للملك دون رودريغو **Rodrigo**(**)، واللذان أسندت إليهما الكتب الرصاصية. فقد أكد ميغيل دى لونا أن تلك الرسالة إنما هى ترجمة إلى الإسبانية، لرسالة تاريخية عربية، بينما هى فى الواقع عملية تزييف؛ فالعملية كانت مجرد إعادة كتابة تاريخ إسبانيا (فى عصر

---

(*) تعرضنا لموقف الموريسكى من عذرية مريم فى دراستنا ثقافة موريسكى : قراءة فى المخطوطة رقم ٩٦٥٤ بمكتبة مدريد الوطنية" المؤتمر العالمى الحادى عشر للدراسات الموريسكية ، زغوان، تونس، ٢٠٠٣ . (المراجع).

(**) نسعى إلى ترجمة هذه الوثيقة المهمة إلى اللغة العربية وربما تُنشر الترجمة قريبًا ضمن إصدارات المجلس الأعلى للثقافة. (المترجم)

فيليبى الثانى، فى الوقت الذى كانت تجرى فيه بالتحديد عملية صياغة أسطورة التقويط goticista) والتى تناولت الملك رودريغو والقوط وكأنهم كانوا بؤرة للفساد والانحراف، وأن الشعب الإسبانى هو الذى ناشد العرب لكى يمدوا إليه يد العون ويهبوا لإنقاذه وتحريره(*).

استهدفت الأمثلة الثلاثة المذكورة أن يكون للموريسكيين موقع غير موقعهم، ودور غير دورهم فى التاريخ وفى المجتمع الإسبانى، وطرح الإسلام فى صورة غير مناهضة، بل وكأنه نسخة حقيقية نقية وأصيلة وقريبة من المسيحية، ولكن هذا لم يحقق شيئًا . ومن الغريب أن قطاعا من أشد عناصر الكنيسة الإسبانية تشددا (تحديدًا أولئك المؤيدون لفكرة الطرد) استخدم جانبا من ذلك الطرح، وهو طرح لأفكار من الفقه الإسلامى، مثل أولئك الذين كانوا يقولون إن كلا من اليهود واليونانيين أفسدوا الكتب المقدسة فى الأزمان السابقة، وذلك لاستخدامها فى صراعهم ضد الإنسانيين الذين درسوا ونشروا فى تلك العصور إصدارات وترجمات جديدة للنصوص العبرية والإغريقية من العهد القديم والعهد الجديد. وهذه أمثلة تثبت أن ثمة مسيرة امتدت على مدى العصور الوسطى : أناس يدينون بديانات

---

(*) انظر قراءة ماركيث بيانويبا لهذا الموضوع فى كتابه "القضية الموريسكية من وجهة نظر أخرى" ترجمة عائشة سويلم، مراجعة وتقديم جمال عبد الرحمن، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ٢٠٠٥ . (المراجع)

مغايرة، تعيش فى مناخ واحد، وتتلقى الحوافز الفكرية نفسها، تستولى على أعمال وأفكار معارضيها فى الوقت الذى يمكنهم فيه الاسـتفادة لتحقيق أهداف الديانة التى يدينون بها.

## (٥)

### الموريسكيون بعد الطرد

عرف الموريسكيون في المغرب بأنهم رفاق مواطنة مع من سبقوهم إلى هناك تحت اسم الأندلسيين، وقد ذهبوا إلى هناك لكي ينضموا إلى صفوف هجرات توالت في تدفقها على مدى قرن من الزمان.

لقد أسفر التقدم الرائع والحاسم الذي شهده منتصف القرن الخامس عشر، عند استيلاء المسيحيين على مملكة غرناطة، عن موجة طرد استهدفت سكانها الذين تركوا بصمات واضحة على مختلف مناطق شمال إفريقيا. وبلغت تلك الهجرة ذروتها من فالنسيا إلى غرناطة، بعد الاستيلاء على تلك الأخيرة، وكانت بمثابة معبر لرءوس الصفوة الغرناطيين . كانت عمليات الفرار تجاه الشاطئ الجنوبي للبحر المتوسط مستمرة طوال النصف الأول من القرن الخامس عشر، ولكن تلك الهجرة بلغت ذروتها ثانية أثناء حرب البشرات Alpujarras.

وبصورة عامة، فإنه إذا كان العنصر الأندلسى لم يظهر فى المقدمة على الساحة المغربية حتى أواخر القرن الخامس عشر، فإن ذلك لم يكن سوى المصير المنطقى لعملية تطور طويلة، لأن الهجرة إلى المغرب كانت على مدى تاريخ الأندلس، مجرد منفذ للهرب من الاضطرابات الداخلية، وملجأ للمتمردين أو ضحايا النكسات السياسية، لجأ إليه الفقهاء والعلماء لتلقى العلم فى القيروان أو تلمسان أو فاس. كذلك كان للمصالح التجارية والسياسية للأندلس ثقل كبيرٌ أسهم فى إقامة الأندلسيين فى المغرب. وكان المغرب بصفة خاصة هو المكان الذى استقبل النازحين نتيجة للحروب المسيحية التى اندلعت فى القرن الثالث عشر.

انضم المدجنون والموريسكيون قبل عملية الطرد واللاجئون فى ساحل الشمال الإفريقى إلى صفوف القراصنة(*) فى تلك المنطقة، وقاموا بعمليات إغارة دخلوا من خلالها شبه الجزيرة لتخليص إخوانهم فى الدين ونقلهم من هناك، وأدى كل ذلك إلى تنشيط أعمال القراصنة، وخاصة فى بحر ألبوران Alboran والسواحل الشرقية.

---

(*) تتحدث المؤلفة هنا عن نوعين من القرصنة : القرصان الحكومي corsario ، والقرصان الخاص Pirata. كان القرصان الحكومي تحميه تعاهدات دولية وكان لا يحصل بمفرده على الغنائم كلها. عموما فإن المؤرخين العرب يكرهون لفظ "قرصنة" ويتحدثون عن "الجهاد البحرى" وأرى أن هذا الاسم ترجمة مناسبة جدا لكلمة corsario، أما القرصان الخاص فهو مجرد شخص يعمل لمصلحته وربما تورط فى الهجوم على أى سفينة بغض النظر عن جنسيتها. (المراجع)

ولقد أكد هؤلاء المواطنون الأندلسيون مدى تطـــرفهم فـــي العــداء المتــأجج نتيجة اقتـــلاعهم من ديارهم بســبب الحروب، وبـــســـبب ما تنطوى عليه صدورهم من أحقاد ضد سكان شبه الجزيــرة. هـــذه الصفات، إضافة إلى معرفتهم بشواطئ شبه الجزيرة، وإلمامهم بلغـــة قشتالة أو فالنسيا، وارتدائهم الزى المحلي الشائع فى تلــك المنـــاطق جعل لدخولهم إلى شبه الجزيرة مردودًا فعالاً.

وخلال الفترة ١٦٠٩-١٦١٠، خرجت من إسبانيا أفواج كبيرة من الموريسكيين متجهة إلى فرنسا وإيطاليا، ذلك لأن القرارات التى صدرت فى بادئ الأمر قضت بألا يصطحب المهاجرون إلـــى دول إسلامية أبناءهم معهم. ومن هناك، أى من كل من فرنسا وإيطاليـــا، ذهب عدد قليل منهم إلى مصر(*) وتركيا، وإن كان السواد الأعظـــم منهم هاجر إلى بلدان الشمال الإفريقى، إلى حيث ذهب كل من غادر مناطق التاج القشتالى فى المرحلة الثانيـــة خــــلال الفتـــرة (١٦١٠-١٦١٤).

جاء النص الذى سوف أتحدث عنه فيما بعد، فى سياق رسالة لمؤرخ مغربى يدعى المقرى **Al Maqqari**، وكان معاصـــرًا لعمليـــة الطرد وهى عبارة عن مقدمة موجزة وخاصـــة بموضـــوع إقامـــة

---

(*) انظر فى هذا الموضوع كتاب د. عبد الرحيم عبد الرحمن ، وثائق المغاربـــة مـــن ســـجلات المحاكم الشرعية المصرية إبان العصر العثمانى ( ٣ أجزاء ) ، مؤسسة التميمي للبحث العلمى والمعلومات ، زغوان ، تونس. ( المراجع )

الموريسكيين في البلدان الإسلامية التي استقبلتهم.

"خرج الآلاف في الطريق إلى فاس، واتجهت آلاف أخرى إلى تلمسان ، بدءًا من وهران، وقصدت جماعات منهم تونس. وبينما هم ماضين في طريقهم، انقضت عليهم عصابات من البدو، وأناس لا يخافون الله في مناطق تابعة لفاس وتلمسان، فاستولوا على أموالهم، ولم ينج من هذه المحنة إلا فئة قليلة منهم؛ هذا على خلاف من اتجه منهم إلى تونس، فقد وصلوا جميعًا سالمين. بنوا هناك قرى وشعابًا في مناطق غير مأهولة، وفعلوا ذلك في سلا ومتيجه Mitiya في الجزائر".

"اتخذ سلطان المغرب بعضهم جنودًا وزودهم بالسلاح وأقاموا هناك في سلا، بينما انصرف آخرون إلى امتهان العمل الحربي النبيل في البحر، باعتباره من الأعمال المشهورة بالنسبة لما يتعلق بالدفاع عن الإسلام، قاموا بتحصين قلعة سلا، وهناك أقاموا قصورًا، وحمامات وبيوتًا، مازالت قائمة حتى الآن".

وصلت جماعة أخرى إلى إستنبول، وإلى مصر، وسوريا العظمى، وأيضًا وصلت جماعات أخرى إلى مختلف المناطق المسلمة. وهكذا فإن الأندلسيين موجودون حاليًا (طبقًا لترجمة إيبالثا Espalza عام ١٩٩٢) (*).

---

(*) انظر الترجمة العربية لكتاب إيبالثا "الموريسكيون في إسبانيا وفي المنفى"، ترجمة وتقديم جمال عبد الرحمن، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ٢٠٠٥ . (المراجع)

هذه الوثيقة تعد بمثابة تقرير عن الصعوبات التى واجهها الموريسكيون لدى وصولهم ، وذلك إضافة إلى الممارسات الوحشية وعمليات السطو التى كان يتعرض لها المطرودون من قبل أطقم البحارة وملاحى السفن التى كانت تنقلهم إلى الشاطئ فى الناحية الأخرى من المضيق. هناك أيضًا مجموعة من القواعد والأسس، سوف أطرحها فى الصفحات التالية. اتبع الموريسكيون من حيث المبدأ نموذجًا حياتيًا مشابهًا لما هو متبع فى الدول المضيفة، وخاصة فى البلدان الواقعة تحت الوصاية، فى الجزائر وتونس، والتى كانت تابعة للإمبراطورية العثمانية، وفى المغرب، البلد الوحيد الذى ظل مستقلاً عن إسطنبول. أقام الموريسكيون المطرودون، كما أقام من سبقهم اعتبارًا من النصف الثانى من القرن الخامس عشر، أقاموا بصفة أساسية فى المدن الساحلية (الرباط، وسلا، وتطوان وموستاغانم Mostaganem ، وشرجيل Chercel، والجزائر، وبجاية Bugia ، وبونا، وبنزرت، وتونس، وطرابلس... إلخ)، وهناك امتهنوا القرصنة ، أى القتال فى البحر المتوسط، وفى المحيط الأطلسى (حيث كانوا يعترضون السفن المارة إلى العالم الجديد بصورة مستمرة) ضد المسيحيين، على سفن ترفع علامة السلطة السياسية.

القرصنة هى الوسيلة الدفاعية التى كانت تلجأ إليها الدول التى تفتقر إلى أسطول نظامى، ويقع الجانب الأكبر من موانيها تحت

الاحتلال البرتغالى والإسبانى (مازاغان Mazagan وطنجة، وسبتة ومليلة، ومضيق بيليث، ووهران، وحلق الوادى Goleta). تزامن طرد الموريسكيين تحديدًا فى عام ١٦١٠ مع احتلال إسبانيا لميناء العرائش المغربى Larache، و كان وجود الموريسكيين فى الكيانات الدفاعية وفى جيوش دول الشمال الإفريقى، وخاصة فى أجنحة المدفعية، من المظاهر المألوفة بصفة عامة. ولقد أقام الموريسكيون أيضًا فى عواصم تلك الدول وفى مختلف مدنها فى كنف السلطات السياسية المسيطرة هناك، وكانوا يحيطون بالسلطان وبالبكوات العثمانيين، كما كان يوكل إليهم بمهام إدارية، وعينوا فى مناصب المترجمين، كما اشتغلوا بالتجارة والحرف اليدوية... إلخ أيضًا تملكوا أراضى زراعية فى محيط المدن التى أقاموا بها ، وعمومًا، شارك الموريسكيون فى الحياة المدنية وسط مختلف الأجناس فى موانئ البحر المتوسط خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر، مع تجمعات أخرى شملت مسلمين ويهود من أصل أوروبى أيضًا. وكانت تلك المدن متعددة اللغات، وإن كانت الغالبية العظمى بها تتحدث العربية. فهناك من كان يتكلم التركية، ومنهم من يتكلم البربرية، إضافة إلى خليط من اللغات السائدة جميعها فى دول البحر المتوسط، وذلك يرجع إلى وجود أعداد كبيرة من التجار والأسرى. وقد شارك الموريسكيون فى تعدد اللغات هذا، وأصبحت الإسبانية

موجودة فى كل مكان نظرًا لانتشارهم فى مختلف مدن المغرب، وخاصة فى مراكش. واستطاع الموريسكيون أن يسيطروا على مساحات كبيرة من الأراضى الزراعية فى مختلف الوديان والدلتا المغربية وكانت تلك الأراضى تقع دائمًا قريبة من المدن التى يقيمون فيها، وذلك تحت حماية السلطة السياسية.

أقام الموريسكيون فى تجمعات خاصة بهم بصفة عامة، على هامش مجتمعات الأغلبية كما سبق أن ذكرنا، وذلك على الرغم من تمتعهم بحماية السلطة السياسية، اعتبروا هناك وكأنهم جسم غريب، مما أثار الشكوك فى حقيقة إسلامهم. وحاول كثيرون منهم العودة إلى المواقع الإسبانية مثل سبتة، أو مليلة، أو طنجة، أو وهران، حتى لو كان الثمن أن يحيوا حياة العبيد. كما حاول بعضهم الإقامة فى مناطق أخرى خاضعة للتاج الإسبانى، مثل صقلية. وقد علمنا أن كثيرين منهم ماتوا لكونهم مسيحيين مخلصين(*)، أو لإعلانهم ذلك، أو لرفضهم الامتثال لعمليات الختان. وتجمع الموريسكيون فى الغالب سواء فى محال إقامتهم، أو فى أماكن العمل، مع جماعات أخرى فى مناطق محيطة بالمدن، مثل من عرفوا بالمارقين (الأسرى الأوروبيين

---

(*) نتساءل هنا : ما الذى يدفع المسيحى المخلص إلى الهجرة من إسبانيا إلى بلد إسلامى؟ وإذا كانت السلطات الإسبانية شكت فى عقيدته المسيحية وطردته، ألم يكن الأحرى به أن يهاجر إلى بلد مسيحى مثل فرنسا؟ (المراجع)

الذين اعتنقوا الإسلام)، واليهود من أصل إسباني المطـــرودين عـــام ١٤٩٢، حيث كانوا يتقاسمون معهم استخدام اللغـــة، والخـــصائص الثقافية، وخاصة الإسبانية. امتهنت الجماعات الثلاثـــة القرصـــنة(*) عملت الجماعتان الأولى والثانية في القرصنة، وفي تـــسليح الـــسفن وتموينها. أما المجموعة الثالثة فقد تخصصت فـــي إنقـــاذ الأســـرى وتخليصهم، وفي ممارسة التجارة. ولكن هناك أغلبية كبيرة امتهنـــت تلك الحرفة التي تميزوا بها في إسبانيا : الزراعة والري، وزراعـــة البساتين، فأدخلوا المزروعات والتقنيات التي اشتهروا بها في الوطن القديم، كما تخصصوا في الأعمال الحرفية كصناعة الجوخ والحرير، وفي تصنيع الأسلحة النارية وفنون البناء. وعلـــى ســـبيل المثـــال، احتفظت المطرزات المغربية بما تميـــزت بـــه مطـــرزات طليطلـــة وسلمنكا من رسوم وحليات.

ومع ذلك ، لعبت ظروف مختلف بلدان الشمال الإفريقي دورًا في وجود اختلافات في أسلوب حياة سكانها من الموريسكيين، ولكـــن بمرور الوقت انتهى بهم الأمر إلى الانخراط كلية في حيـــاة الـــسكان المحليين.

---

(*) لمعرفة نشاط اليهود في ذلك العصر انظر كتاب غارثيا أرينال وجيرارد ويغرس "بين الإسلام والغرب" ترجمة ممدوح البستاوي، مراجعة وتقديم جمال عبد الرحمن، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ٢٠٠٥ . (المراجع)

## المغرب :

الموريسكيون الذين وصلوا إلى المغرب، وأقاموا بـــه، أتـــوا بصفة خاصة ضمن المطـــرودين مـــن إكـــستريمادورا، وقـــشتالة، وأندلوثيا، والتحموا بالغرناطيين الذين سبق أن هاجروا إلى هناك من قبل.

تولت أسرة السعدى مقاليد الحكم فى المغـــرب اعتبـــارًا مـــن منتصف القرن السادس عشر، وقد استمدت هذه الأسرة شرعيتها لكى تمارس السلطة هناك بزعم أنها من نسل النبى محمد صلى اللّٰه عليه وسلم ، وبالتالى فإنهم من الأشراف. ولجأت هذه الأسرة المالكة فـــى أكثر من مناسبة إلى عقد تحالفات مع التاج الإسبانى، وخاصـــة مـــع فيليبى الثـــانى، وذلـــك لحمايـــة نفـــسها مـــن التـــدخل التركـــى ؛ فالإمبراطورية العثمانية كانت قد وصلت بحدودها حتـــى الجزائـــر، وتسعى إلى ضم المغرب، وهذا ما كان يثير مخاوف كل من السعدى والإسبان. وفى الوقت الذى كان على المغاربة أن يحموا أنفسهم فيـــه من التدخل الإسبانى، ومن احتلال إسبانيا لعدد من موانيها الرئيـــسية، لجأوا بدورهم إلى العثمانيين.

بلغ حكم آل السعدى أزهى عصوره فى عهد السلطان أحمـــد المنصور (١٥٧٨-١٦٠٣). وقد تولى هذا السلطان العرش على أثر معركة القصر الكبير، التى أنزل المغرب فيها هزيمة نكراء بـــالجيش

البرتغالي بقيادة الملك سباستيان . كانت البرتغال أيضًا تخطط للتدخل في المغرب، بدأته بغزو سبتة عام ١٤١٥، وواصلت تنفيذ مخططها بغزو أو إقامة عدد من الموانئ بالساحل المغربي على الأطلسي، بدءًا من سبته وطنجة حتى سانتا كروز برأس جوى Gue، أغادير حاليًا، وصافي Safi . وقد تم الاستيلاء على الأخيرين ما بين ١٥٠٣، و ١٥٠٨. كانت تعرف بحدود أو مدن مطلة على البحر، وكانت البرتغال تستخدمها في الحصول على إمدادات القمح مما كان ينتجه المغرب، ومراس للسفن وهي في طريقها إلى جزر الهند الشرقية. أثار وقوع تلك المواقع في أيدي المسيحيين (إسبانيا كانت تحتل مليلة منذ عام ١٤٩٧)، مشاعر الضيق في المغرب، علاوة على وقوف ذلك عائقًا أمام التجارة البحرية. وكانت عملية الخنق هذه من الأسباب التي دعت أحمد المنصور إلى غزو السودان الغربي في عام ١٥٩١، أي بلاد جنوب الصحراء، حيث كانت مناجم الذهب، وحيث الطرق التجارية التي اكتسبت أهميتها منذ العصور الوسطى. لقد تم غزو السودان هذا، بالاستعانة بجيوش تضم موريسكيين هاجروا أثناء حرب البشرات، بالإضافة إلى من عرفوا بالمارقين(*)، إلى حد كبير.

توفي أحمد المنصور في أواخر عام ١٦٠٣، على أثر إصابته بوباء الطاعون الذي اجتاح البلاد، وبوفاته دخل أبناؤه في صراع

---

(*) تقصد المسيحيين الأوربيين الذين اعتنقوا الإسلام. (المراجع)

على الخلافة. إذن، فإن الموريسكيين الذين طردوا في أوائل القرن السابع عشر، جاءوا إلى بلد اجتاحه الطاعون، أنهكته حرب أهلية طويلة.

وبوفاة المنصور نصب أحد أبنائه، مولاى زيدان، سلطانًا في فاس، ونصب آخر، أبا فارس سلطانًا في مراكش. وبعث هذا الأخير ابنه برفقة أخيه مولاى الشيخ المأمون (يعرف في الوثائق الإسبانية باسم مولاى الشيخ) على رأس جيش إلى فاس، ولما منى زيدان بالهزيمة هرع إلى اللجوء إلى الأراضى التركية طلبًا للعون. إلا أن مراده لم يتحقق، لأن مولاى الشيخ نصب سلطانًا في فاس. استغرقت الحرب الأهلية بضع سنين . وطلب مولاى الشيخ معونة من إسبانيا، حيث أقام هناك لاجئًا فترة من الزمن، وحصل على المعونة مقابل أن يسلم لفيليبى الثانى ميناء العرائش Larache . وكان هذا الميناء واحدًا من الموانئ القليلة التى بقيت في أيدى المغاربة، وكان مثارًا لقلق دائم للإسبان، خاصة أنهم بذلوا جهودًا متكررة طوال فترة حكم فيليبى الثانى للاستيلاء عليه دون كسر التحالف مع المغرب؛ لما كان يمثله من ضرورة باعتباره سدادة في مواجهة الدفع التركى. علاوة على ذلك، أصبح ميناء العرائش ملجأ للقراصنة المغاربة، والموريسكيين، بل والإنجليز والهولنديين، لما كان يشكله من خطر يتهدد سواحل إسبانيا الجنوبية، وخاصة على الطريق إلى العالم الجديد.

كان مولاى زيدان، وقد بدا لفترة أنه هو الذى سيكسب الحرب، يثير قلق الإسبان كثيرًا، ذلك لأنه كان المرشح الذى يحظى بتأييد تركيا. وبالفعل تضمن أول مرسوم بالطرد، والذى صدر فى عام ١٦٠٩، أن الخطر الوشيك الذى يتمثل فى مولاى زيدان، إنما هو واحد من الأسباب التى أدت إلى اتخاذ هذا القرار فى ذلك الوقت. وبمجرد تنفيذ قرار الطرد، قام مولاى زيدان بتجنيد فرق كبيرة من الموريسكيين المطرودين، فى صفوف جيشه، كما فعل والده أحمد المنصور من قبل.

اكتسب الغرناطيون - وقد أعادوا تعمير مواقع متعددة على ساحل المغرب المطل على الأطلسى منذ منتصف القرن الخامس عشر - أهمية جديدة فى ذلك الحين. ولعل أبرز وضع كان وضع تطوان، تلك المدينة التى تعرضت للسلب والنهب والتدمير على أيدى البرتغاليين عام ١٤٣٧. وحصل أحد الزعماء الغرناطيين، المنداري، على ترخيص من سلطان فاس لإعادة تعميرها بمواطنين غرناطيين، إضافة إلى إعادة أعمارها وتحصينها. وطوال القرن التالى اكتسبت تطوان، تلك المدينة التى أصبحت فى وضع مستقل عمليًا، وجميع سكانها تقريبًا من الأندلسيين، اكتسبت أهمية من الدرجة الأولى فى النشاط التجارى، وفى تهريب الأسرى. الوضع نفسه ينطبق على

طازوطـــه **Tazuta** بـــالقرب مـــن مليلـــة، أو شـــاوين **Xauen** (شفشاوين**Chefchaouen**)(*).

كشفت أعمال تنقيب أجريت مؤخرًا فـــى الـــساحل الـــشمالى للمغرب وحول سلسلة من القلاع الحصينة، عن مؤشرات بأنها أقيمت بأيد أندلسية على النمط الإنشائى المتبع فى نظم المراقبـــة الـــساحلية بمملكة غرناطة.

إذن فإن الموريسكيين الذين هاجروا إلى الأندلس قبل عمليات الطرد التى نفذت فى الفترة ١٦٠٩-١٦١٤، وما بعدها، قاموا بمهـــام على قدر من الأهمية فى جميع صور الحرب، كـــان ذلـــك ضـــمن صفوف جيوش السلطان، أو فى عمليات القرصنة. لدينا مثال واضح لأساليب حياة تلك المجموعة من الناس، وهو ما يتمثل فـــى ترجمـــة حياة سعيد بن فرج الدوكالى **Al-Dugaly**، وسوف أعـــرض لحياتـــه باعتباره حالة نموذجية، ومثال مجموعة كرست نفسها لأولى المهـــام سالفة الذكر.

ولد الدوكالى فى مملكة غرناطة، ثم هاجر إلى المغـــرب فـــى تاريخ يسبق حرب البشرات خـــلال الفترة ١٥٧٠-١٥٧١. ثم أقـــام

---

(*) صدر عن المجلس الأعلى للثقافة كتاب غوثالبيس بوستو "الموريسكيون فى المغرب" ترجمـــة مروة محمد ابراهيم، مراجعة وتقديم جمال عبد الرحمن، وهو يتنـــاول الـــدور الـــذى لعبـــه الموريسكيون فى المغرب من جميع النواحى، وربما يصدر كتاب آخر عن المندارى الغرناطى مؤسس تطوان. (المراجع)

فى تطوان، وهناك انصرف إلى ممارسة القرصنة، وفى عام ١٥٦٣ تقريبًا، كلفه السلطان بتشكيل قوة مدفعية بالجيش، من الموريسكيين . ثم منحهم السلطان أراضى فى سهل مراكش الخصيب، وذلك لتمكينهم من توفير احتياجاتهم المعيشية، وهناك زرعوا البساتين وقاموا بغرس الأشجار المثمرة. وفيما يبدو أن تلك المجموعة كانت تبلغ نحو ألفى شخص، ووصل بهم الأمر إلى أن كونوا شكلاً من أشكال الصوفية، تأتمر بأوامر الدوكالى، الذى شارك فى مختلف الحملات التى جردها السلطان، بصورة متميزة.

واستمر الدوكالى فى انخراطه فى نشاط القرصنة. وفى عام ١٥٧١ كان له فى سلا **Salé** سبع سفن قرصنة مجهزة وعلى أهبة الاستعداد لشن هجمات على جزر الكنارى، واستخدم تلك السفن فى عمليات سلب ونهب أسفرت عن احتلال مدينة "الرصيف" **Arrecife** فى لانثاروتى **Lanzarote** . ظل الدوكالى وأتباعه أصحاب اليد الطولى فى الجزيرة طوال شهرى سبتمبر وأكتوبر من العام نفسه وفى عام ١٥٧٣، استولى على بلدة كهوف المنصورة **Cuevas de Almanzora** فى إقليم غرناطة، ونقل جميع سكانها أسرى إلى المغرب.

واصل الدوكالى، هو وجنوده الموريسكيون المسلحون بالبنادق مشاركتهم فى عمليات لحساب السلطان، ضد قبائل متمردة امتنعت

عن دفع الضرائب، وكذلك في الأعمال التحضيرية لمعركة القصر الكبير. ولما عجز السلطان عبد الملك عن معرفة المكان الذي يرسو فيه الملك سباستيان فقد بعث السلطان بعدد من الفصائل إلى مختلف المواقع بالساحل وأوفد الدوكالي، وكان قد حصل في ذلك الوقت على لقب "باشا".. إلى سوس وذلك للدفاع عن رأس أغير Aguer. ولقى عبد الملك حتفه في المعركة وكانت آخر مغامرة طموحة لهذا الموريسكي، هي محاولة القيام بانقلاب عسكري ضد خلفه أحمد المنصور، كان سببًا في تنفيذ حكم الإعدام فيه عام ١٥٧٩(*).

إلى جانب تطوان، والتي كانت تحقق اكتفاءً ذاتيًا للموريسكيين، تمثلت أقرب المواقع أهمية في المغرب، في المحور الرباط – سلا . ففي عام ١٦١٤ تقريبًا، أقامت مجموعة كبيرة من الموريسكيين، قدم القطاع الأكبر منها من قرية أورناتشوس Harnachos التابعة لإقليم إكستريمادورا، عند مصب نهر بورقريق Beregreg، وعلى ضفتيه الرباط من جانبه الجنوبي، وسلا من الجانب الشمالي.

وجد أهل أورناتشوس قلعة الرباط، وتسمى حاليًّا (قصبة العديات) مدمرة، فاحتلوها وأعادوا بناءها وتحصينها. وخلال

---

(*) هناك شخصيات موريسكية قامت ببطولات فريدة في الجهاد ضد الإسبان. انظر مثلاً قصة بلانكيو التي وردت في أعمال سيرافين كالديرون. (المراجع)

السنوات التالية قدم عدد آخر من الموريسكيين الذين وفدوا من إكستريمادورا، ومن أندلوثيا على وجه الخصوص، وانضموا إلى المجموعة الأولى محتلين شمال المصب، أى سلا.

أكسب تسليم ميناء العرائش إلى الإسبان فى عام ١٦١٠، واستيلاؤهم على ميناء المعمورة **Mamora** عام ١٦١٤، محور الرباط – سلا ، قيمة جديدة، باعتباره الميناء المغربى الوحيد فى شمال ساحل الأطلسى، والذى يتميز بموقعه الممتاز بالنسبة لاعتراض الطريق إلى العالم الجديد وإلى المضيق. تحول هذا الميناء فيما بعد، مثل تطوان، إلى بؤرة للقرصنة، حيث لجأ إليه قراصنة إنجليز وهولنديون أيضًا.

واعتبارًا من العقد الذى بدأ فى عام ١٦٢٠، بدا ميناء سلا كيانًا سياسيا مستقلاً. وتولى حكم ما سمى "بجمهورية سلا" مجلس مكون من اثنى عشر عضوًا، مارس مهامه كما لو كان مجلسًا بلديا إسبانيًا، أما رئيسه فكان برتبة أدميرال (أمير بحر). ومن حيث التنظيم، كان قريبًا جدا من كونه بلدية إسبانية، وأما بالنسبة لوظيفة المدينة والحياة فيها فكانت أقرب إلى الموانئ التركية فى البلدان الواقعة تحت الوصاية، كالجزائر، أو تونس، أو طرابلس. وفى عقد ١٦٣٠، أعلن من جديد أن أهل سلا، على الأقل اسميًا، رعايا سلطان المغرب، وكانوا قد قاسوا كثيرًا من الهجمات التى كان جيشه يشنها

عليها، كما عانوا أيضًا من هجمات تعرضوا لها من جيشه ومن قوى أخرى متمردة على السلطان فى شمال المغرب. وفضلاً عن ذلك، حاول أهل سلا أكثر من مرة التفاوض مع إسبانيا، يطالبونها بأن تمد إليهم يد العون فى مواجهة أعدائهم، مقابل التنازل عن الموقع، وتمكينهم من العودة إلى إسبانيا. كانت أولى محاولات التفاوض فى عام ١٦١٤، ثم تكررت المحاولة فى سنوات ١٦١٩ و ١٦٣٢ و١٦٣٧ و ١٦٦٣.

سبق أن ذكرنا من قبل أن الموريسكيين تقلدوا مناصب مختلفة في محيط السلاطين، بالإضافة إلى نشاطهم الحربى فى البر والبحر. فقد استخدم آل السعدى العديد من الموريسكيين ليعملوا فى خدمتهم، اعتبارًا من منتصف القرن الخامس عشر، فاستخدموهم مترجمين ومبعوثين فى مهام إلى الخارج. وكما جاء فى سياق حديثنا عن الجنود، والقراصنة، سوف أتناول هنا، على سبيل التوضيح، خط مسار حياة فريدة.

لعل أبرز مثال لهؤلاء الموريسكيين الذين عملوا فى البلاط المغربى، هو أحمد بن قاسم الأندلسى، المعروف باسم الحجرى. ربما يكون من مواليد ١٥٦٩ أو عام ١٥٧٠ فى إسبانيا، ويحتمل أن يكون مولده فى إكستريمادورا وإن كان قد عاش أيضًا فى إشبيلية، ومدريد.

شارك مترجمًا في حكاية الرق الذى اكتشف فى البــرج التوربيـــانى Turpiana في غرناطة، وفى كتب الجبل المقدس الرصاصية.

تنكر الحجرى فى هيئة مسيحى عجوز، ونجح فى الإبحار من ميناء سانتا ماريا فى قادش متجهًا إلى ميناء مازاغـــان البرتغـــالي. وتمكن من الهروب أيضًا من هناك إلى مـــراكش، واســـتقبله هنــاك السلطان أحمد المنصور. وكان ذلك فى عام ١٥٩٩ وفـــى مـــراكش تزوج الحجرى ، وكون أسرة. ولما استقر مولاى زيدان فى مدينـــة مراكش، عين سكرتيرًا ومترجمًا للسلطان عام ١٦٠٨، وقـــام بـــدور مهم فى الحياة الثقافية بالمدينة. ثم حدث طرد الموريسكيين بعد فتـــرة زمنية قصيرة، وتعرض فوج منهم، وهو فى طريقه إلى المنفى على متن أربع سفن، تعرض لواقعة سرقة فقد فيها أعضاء الفوج أمتعـــتهم من قبل طاقم البحارة. ولما وصل هذا الفوج من الموريـــسكيين إلـــى المغرب، تقدم أعضاؤه بشكوى إلى مولاى زيـــدان، فقـــرر قبـــل أن يطالب السلطات الفرنسية، أن يبعث بأحمد بن قاسم الحجـــرى إلـــى أوروبا، إلى فرنسا وهولندا.

وكان الحجرى رجلاً على درجة عالية من الثقافة، فـــأجرى اتصـــالات فى هولندا بأوائل المستشرقين فى جامعة ليـــدن، وبـــالأمير موريسيو ناسو Mauricio Nassau، وكذلك أيضًا مع الجالية اليهوديـــة

الإسبانية والبرتغالية، حيث جمعت بينهم شراكة في اللغـــة، وأجـــرى معهم مناقشات وجدالاً دينيا. وكتب الحجرى عن رحلته إلى أوروبـــا كتابًا على قدر كبير جدا من الأهمية، تنـــاول فيهـــا تلـــك التجـــارب تفصيلاً. وبعد عودته إلى مراكش، تسلم مهامه سكرتيرًا ومترجمًـــا، واستمر في وضعه طوال فترات حكم السلاطين التـــاليين. وتـــرجم أيضًا عددًا من المؤلفات العربية إلى اللغة الإسبانية، مؤلفات دينيـــة، لكي يستعين بها الموريسكيون في المنفى الذين ما زالوا يجهلون اللغة العربية حتى ذلك الحين . وترجم إلى العربية أيضًا، هذه المرة، فـــي تونس، حيث أقام حتى وفاته، دليلاً عن المدفعية(*).

ولكن كانت هناك شخصيات أخرى، وإن كانت مهامهـــا أقـــل أهمية، مثل سيدى عبد الله دودار، وهو موريسكى ولد في غرناطـــة، وكان يجيد الإسبانية تمامًا، كما كان ملمًّا بالإيطالية. وفي عام ١٦٠٠ عمل بالسفارة المغربية في إنجلترا مترجمًـــا. وكـــان لـــدى أحمـــد المنصور مترجم أندلسي آخر، هو عبد الـــرحمن القطّـــاني، والـــذى سوف نلتقي به ثانية في مراكش، عـــام ١٦٠٩، مترجمًـــا لمـــولاى زيدان. أيضًا هناك موريسكيون سيتولون مهام سفراء في كـــل مـــن إنجلترا وهولندا، مثل أحمد بن عبد الله المارونى ويوسف بسناينو.

---

(*) هو كتاب "العز والمنافع للمجاهدين في سبيل الله بالمدافع" ومؤلف الكتاب موريسكى استطاع أن يحرر كتابه بالإسبانية على ضوء ما شاهده أثناء وجوده في الأسر. (المراجع)

مارقون، وموريسكيون ويهود إسبان، كانوا هم السبب الذى دعا دول شمال أوروبا، وخاصة إنجلترا وهولندا، إلى إقامة علاقات دبلوماسية مع المغرب، وكانت مراسلات هذه الدول مع المغرب تتم دائمًا باللغة الإسبانية.

**الجزائر:**

كانت مدينة الجزائر بالنسبة للرأى العام الأوروبى، وبصفة خاصة جدا الرأى العام الإسبانى، هى عاصمة القرصنة بالدرجة الأولى؛ حيث كان يجد فيها القراصنة الملجأ والزاد. فكانت أفواج الأسرى تتدفق عليها سنويا، إضافة إلى الغنائم من مختلف أنواع السلع. الأسرى، والقراصنة، والمارقون (المرتدون) كانوا هم الإطار الذى يطوق المدينة فى نظر المعاصرين من الإسبان والأوروبيين. وكانت مصادر المعلومات فى الغالب عبارة عن كتابات استهدفت جمع الأموال اللازمة لفداء الأسرى، أو كتابات تحث التاج على غزو الجزائر. وكان يطيب لهذه المصادر أن تجد مناخًا يساعد على انتشارها فى الملمات، ووسط ما يعانيه الأسرى، وفى قساوة الأتراك، بل وفى الأخطار التى كانت تحدق بالأسرى بما يدفعهم إلى الارتداد عن دينهم، وبالتالى إلى فقدان العامل الروحى لديهم. ولقد جاء فى تلك المصادر، وهى فى الغالب من كتابات رجال الكهنوت، أن

الحرية الجنسية مع غياب الإحساس بالشرف، قد تحالفا على إغـراء الأسرى بأن يتخلوا عن الجانب الإيمانى وينـصرفوا إلـى تكـوين الثروات فى المجتمع التركى المغاربى. لأن الجزائر كانـت مدينـة الأسر، بل وهى البلد التى يجوز فيها كل شىء، حيث تتيـسر للعبيد أو المحرومين فرص تحقيق الثروات، والوصول إلى مـستوى فـى السلطة العسكرية والسياسية بعيدًا كل البعد عن أى تصور فى ذلـك المجتمع متعدد الطبقات والمنشأ.

توافق ازدهار مدينة الجزائر مع وصول القراصـنة عـروج Aruch وخير الدين بارباروخا، ثم توليهما السلطة هنـاك. اسـتطاع الأول أن يحصل على مساندة العثمانيين، وقبائل البربر على الساحل الجزائرى علاوة على مساندة الجاليات الموريسكية، وخاصـة تلـك التى وفدت من فالنسيا وأراغون، والتى استقر بها المقام فى المناطق الساحلية، وذلك بحجة الكفاح ضد الإسبان الذين كانوا يسيطرون على المضيق المؤدى إلى ميناء الجزائر. استولى عروج على السلطة فى مدينة الجزائر عام ١٥١٦، بعد أن أعـدم مليكهـا المحلـى حليـف الإسبان، ولكنه بدوره منى بالهزيمة وقتلـه الإسـبان عـام ١٥١٨. وخلفه شقيقه خير الدين، الذى كان ينطوى تحت لواء الإمبراطوريـة العثمانية التى تلقى منها معونة عسكرية تركيـة. أصـبحت مدينـة الجزائر والمنطقة المحيطة بها مقاطعة جديدة تابعـة للإمبراطوريـة

العثمانية، لها جيش قوامه ألفان من الإنكشاريين وأربعة آلاف جندى آخرين من الشرق Lvante والقراصنة. ثم استولى خير الدين على المضيق فى عام ١٥٢٩ وطرد الإسبان المتمركزين هناك. استطاع بارباروخا - بما كان يتميز به من حنكة سياسية وفكر إستراتيجى عسكرى- أن يجعل من مدينة الجزائر وهى تحت الوصاية العثمانية، جزءا من الإمبراطورية العثمانية، حتى إن السلطان سليمان العظيم عينه أدميرالا (قبودان باشا على الأسطول العثمانى) وهو الذى استولى على تونس عام ١٥٣٤ وانتزعها من أيدى الإسبان. اجتاح هذا الأسطول العثمانى السواحل الإيطالية فى السنوات التالية، وأوقع عددًا كبيرًا من الرجال فى الأسر. قال المؤرخ فرانثيسكو لوبيث دى غومارا Francisco Lopes de Gomara "خير الدين بارباروخا هو أعظم القراصنة"، وهو أحسن قائد بحرى، لا مثيل له، وما من أحد بمقدوره أن يفعل أفضل مما فعله هو فوق الماء. ومن إنجازاته، تحصين الجزائر، وجعلها مدينة غنية، متعددة الأجناس ، الحياة فيها منتعشة، ومركزها حصين(*).

أصبحت محمية الجزائر المركز الرئيسى للسلطة العثمانية فى المغرب، وهى القاعدة التى كان ينطلق منها العثمانيون فى حربهم

---

(*) ربما يصدر عن المجلس الأعلى للثقافة قريبا كتاب غومارا "الإمبراطور كارلوس الخامس وحروب البحر المتوسط" ترجمة ناهد العشرى، مراجعة جمال عبد الرحمن. (المراجع)

ضد الإسبان. وكان داى الجزائر يباشر سلطاته باسم السلطان، حتى على باشوات تونس وطرابلس، وبذلك كان هو أعلى سلطة عثمانية فى غرب البحر المتوسط. لم يبق إلا المغرب خارج نطاق السيطرة التركية، إلا أن الجزائر كانت تأوى وتساعد مختلف المرشحين الذين كانوا يتطلعون إلى تولى عرش المغرب، وكثيرًا ما ألقت بثقلها فى النزاعات الداخلية وفى الصراع على عرش ذلك البلد المجاور.

جرت سلسلة من الاتصالات بين كارلوس الخامس وباربروخا، ساعد على إجرائها أندريا دوريا Andrea Doria ونائب ملك نابولى فرناندو غونثاغا Fernando Gonzaga، بهدف التوصل إلى اتفاق بشأن استرداد الأسرى من رعايا التاج الإسبانى، ولكن المحاولات باءت بالفشل؛ مما أدى إلى قيام كارلوس الخامس بتجريد حملة هائلة على الجزائر عام ١٥٤١، وانتهت الحملة بكارثة إسبانية، مما أسفر عن ترسيخ شهرة الجزائر بوصفها قوة لا تقهر وحصنًا منيعًا. أصدر السلطان العثمانى مرسومًا بمنح حسن أغا، البيك الجديد، وخليفة باربروخا رتبة باشا، وبدأت مرحلة سيطر فيها قراصنة الجزائر على البحر المتوسط. اعتمدت هيبة المحمية ورخاؤها إلى حد كبير على بطولات القراصنة وعلى نجاح الحرب الدائرة ضد إسبانيا. أصبحت القرصنة منذ عصر آل باربروخا وحتى عام ١٥٨٠ (ذلك النشاط الذى كان يتمتع بضمان حكومى)

هى البديل عن حرب غير معلنة. ثم طرد فرسان مالطة من طرابلس عام ١٥٥١، وتم الاستيلاء على جزيرة جربة Djerba عـام ١٥٦٠، ومات كونت ألكاوديتى Alcaudete، حاكم وهران على أثـر هزيمـة موستاغانم Mostaganem. وفى إسبانيا اندلعت ثورة الموريسكيين فى البشرات عام ١٥٦٨، وما تلاها من حرب أخرى أسفرت عن هزيمة الموريسكيين الغرناطيين، مما ضاعف أعداد المقيمين على السـاحل الجزائرى، كما تضاعفت أعداد المجندين فـى صـفوف القراصـنة الأتراك والبربر.

ملأ الأندلسيون مدينة الجزائر بعد ثورة غرناطة عام ١٥٠١، وما ترتب عليها من صدور مرسوم التحول الدينى. وكانت وهـران بدورها ماضية فى إيواء أعداد كبيرة ممن لجأ إليها من الغرنـاطيين منذ عام ١٤٩٣. وكان الإخوة باربا روخا Barabaroja يسهلون هـم ومن خلفهم عمليات هجـرة الأندلـسيين دائمًـا، وكـانوا يجنـدون المهاجرين فى الحملات والعمـليات الهجـومية علـى المـسيحيين، كما يسروا لهم التوطن فى أراضيهم، حيث أفادوا منهم فى استزراع الأراضى الخصبة فى سهول المنطقـة المعروفـة بمنطقـة متيجـة Mitiya، والتى تقع ما بين الجزائر العاصمة وبليدة، وذلك فى الفتـرة من ١٥٠١إلى ١٥٢٩، وكذلك جذبوا كل ما أمكن لهم من المهاجرين بالطرق الخفية، وخاصة بعد الهزيمة التى منى بها كارلوس الخامس

فى الجزائر عام ١٥٤١ . وساعد المهاجرون الغرناطيون بانضمامهم إلى صفوف جيش العلج على Uluch Ali الموريسكيين المتمردين في حرب البشرات وتولوا تنظيم عمليات نقل الآلاف منهم فى أعقاب الهزيمة التى لحقت بهم.

ويحكى لنا دييغو دى هاييدو Diego de Haedo الذى كتب وصفا مشهورًا لمدينة الجزائر في عقد ١٥٧٠ أنه خلال السنوات التى قضاها في المدينة (الفترة نفسها التى قضاها أيضًا أسير مشهور آخر : ميغيل دى ثيربانتيس Miguel de Cervantes) كان فى مدينة الجزائر عشرون بيتا لمسلمى غرناطة، وأراغون، وفالنسيا، وقطالونيا "ممن هاجروا من تلك المناطق ودائمًا ما كانوا يخرجون مع نسائهم وأبنائهم". ويقول هاييدو إن هؤلاء الموريسكيين الإسبان ينقسمون إلى عنصرين منفصلين، بعضهم المدجنون، والبعض الآخر الثغريون (أو الحدوديون)، من أراغون، وفالنسيا، وقطالونيا . وجميعهم من أصحاب الحرف، أهمهم المتخصصون في صناعة البنادق. وكانوا يعملون أيضًا بتربية دود القز "كبار السن منهم، وأشد الأعداء قسوة بالنسبة لنا نحن المسيحيين، في بلاد البربر". كان الموريسكيون يقومون بتسليح مراكبهم الشراعية، بمساعدة القباطنة الأتراك، وكذلك الفرقاطات، ثم يبحرون متجهين نحو تلك المواقع على الساحل الإسباني، حيث يقيم ذووهم وأصدقاؤهم. وكانوا يدخلون

بمساعدة هؤلاء مرتدين الملابس المسيحية، ويتحدثون بالإسبانية أو بلغة أهل فالنسيا . وبذلك كانت تسهل لهم عمليات السلب والسطو، إضافة إلى اختطاف الأسرى، إضافة إلى مساعدة موريسكيين آخرين على الهرب.

جعل الأتراك من مدينة الجزائر، فى أواخر القرن السادس عشر، مدينة متعددة الأجناس، مبرقشة، وثرية، وفى صخب دائم. وكان سكان الجزائر، مثل سكان باليرمو أو روما، وربما كانوا أكثر تميزًا منهم. تقع المدينة على خليج شديد الانحدار تكاد تغلقه مجموعة من الجزر الصغيرة، وكأنها سدادات (موقع تشبهه المصادر الإسبانية المعاصرة بقوس المنجنيق)، ويحتمى هذا الخليج بتحصينات أقامها بارباروخا Barbarroja ، وأما وسط المدينة فقد أحسن تخطيطه، حيث يطالعنا بعدد من القصور الخاصة بالغة الثراء. مدينة ساحلية تعج بحركة تجارية كثيفة تتميز بخليط من السكان، وصفها من زارها من الأوروبيين فى القرن السادس عشر بأنها مدينة مزدهرة ومريحة وجميلة وعامرة بالبيوت الفاخرة والحمامات العامة، والحصون المنيعة والعمائر الدينية الرائعة. الثراء هناك يتحقق سريعًا وفرص الرقى الاجتماعى ميسرة وبوفرة. يتنوع سكان الجزائر ما بين بربر وأتراك وعرب، علاوة على موريسكيين إسبان ويهود وأسرى ومرتدين من كل أركان أوروبا. وتشير المصادر بوضوح إلى أن

الأندلسيين، بما كانوا يحظون به من رعاية من قبل الأتراك، وبانضمامهم إلى صفوف قواتهم المسلحة، والحرس الخاص، لعبوا دورًا كبيرًا فى دعم سلطة الصفوة الحاكمة التركية، والتى ظلت بعيدة عن السكان المحليين رغم كل شيء.

كان البحر والملاحة هما عصب الحياة بالمدينة. وبالتالى كانت صناعة بناء السفن وتموينها، وتصنيع السلاح وتجارة المواد اللازمة لتلك الصناعات (وكانت الجزائر تعتمد على استيرادها من الدول المعادية لإسبانيا وخاصة إنجلترا) تمثل جانبًا كبيرًا من الاقتصاد. ولم يقتصر تكوين الثروات على القرصنة والاتجار بالأسرى فى المدينة فحسب، بل كان هناك نشاط تجارى مكثف. اشتهرت منطقة الجزائر بإنتاج الحبوب، والصوف، والزيت، والعسل، والزبيب، والتمور. وكانت السفن الإنجليزية تفرغ هناك حمولاتها من الحديد، والرصاص، والقصدير، والسبائك، والبارود، كما كان القطالونيون والفالنسيون يحملون معهم اللآلئ والأحجار الكريمة والنبيذ لبيعها هناك. وكان أهل الجزائر يجلبون القطن، والجوت الخاص لأشرعة السفن، وملح البارود، والبارود، وحجر الشب، والقار اللازم لصناعة السفن، من مرسيليا، وأما المدن الإيطالية فكان أهلها يجلبون معهم الأقمشة الحريرية، والسلع الترفيَّة، كما كانت حركة المرور مستمرة مع إسطنبول ، وعبر هذه المدينة كانت تصل السلع الواردة من الهند.

كانت التركية هي اللغة الرسمية في المدينة، وكان أغلب السكان يتحدثون العربية أو البربرية، نظرًا لوجود أعداد كبيرة من رجال قبائل الجبال القريبة من هناك، كانوا يفدون إلى المدينة للتجارة. بيد أنه كانت تتردد الأحاديث بكل اللغات، سواء كان ذلك في الميناء، أو في الأحواش التي كان ينام بها الأسرى ليلاً، إضافة إلى لغة حرة، وهي خليط من مختلف اللغات. وتحدثنا مؤلفات ثيربانتيس، وقد أمضى هناك بضع سنوات في الأسر، عن حركة جميع أنواع البشر من مختلف بلدان العالم، ومن مختلف الأعراق والطوائف الدينية، والتي لم تتوقف في المدينة. كل فئة تعرب عن نفسها بلغتها وبطريقة الملبس الخاصة بها. طوائف كل طائفة منها مختلفة عن الأخرى، ولكن الحدود بينها قابلة للنفاذ، مما جعل تجاوزها أمرًا يسيرًا. وأناس جمعت بينهم عناصر ثقافية واجتماعية عديدة، اختلطت لغاتهم، وتعددت بينهم الأديان والأمم. ويصف ثربانتيس المدينة وهو في الأحواش فيقول : "الجزائر ، حسبما أرى، سفينة نوح مصغرة، هنا كل شيء، كل الحرف والمهارات الكامنة. لم يكن الموريسكيون الذين طردوا في القرن السابع عشر، والذين انتهى بهم المقام في الجزائر، سوى فوج من الأفواج الذى سبقت إلى هناك وعاشت منذ نحو قرن ونصف قرن من الزمان. ولم يتخذ هؤلاء من المدينة ولا الأراضي الخصبة المحيطة بها مقرا لإقامتهم فحسب، بل لجأوا،

فى أحيان أخرى، إلى إعادة تعمير الموانئ المتناثرة على طول الساحل، وخاصة بجاية Bugía ، ودليس Dellis، وبونا Bona، وعنابة على الساحل الشرقى، وتنيس Tenes، وبرشيك Birchic، وشرجيل Cherchel على الساحل الغربى.

## تونس :

طائفة الموريسكيين في محمية تونس العثمانية أشهر الطوائف الثلاث التى أشرت إليها . ولعل هذا يرجع إلى أنها كانت طائفة معرفة ومحددة بصورة جيدة جدا داخل المجتمع التونسى، سواء كان ذلك فى القرن السابع عشر أو فى القرون التالية، فهى لم تذُب، ولم تتكيف كلية فى مجتمع الأغلبية، كما حدث فى البلدين اللذين تناولناهما. وهى بالتالى الطائفة التى أجرى بشأنها أكبر قسط من الدراسات المتخصصة.

واجهت تونس خلال القرن السادس عشر العديد من الهجمات المسيحية، وخاصة عملية استيلاء كارلوس الخامس على ميناء حلق الوادى Guleta، وموانئ أخرى أيضا (بنزرت Bizerta) وانتهى الأمر إلى أن فرض كارلوس الخامس شكلاً من أشكال الحماية على الأسرة الحاكمة هناك لكى يحول دون استيلاء العثمانيين على مناطق قريبة

من مناطق تابعة لأملاك إسبانيا فى جنوب إيطاليا (مملكتى نـــابولى، وصقلية). ولم يستول الأتراك على تونس كلية حتى السنوات الأخيرة من القرن.

هذا الوضع المستقل عن إسبانيا، بالإضافة إلى البعد الجغرافى الكبير، يوضح أن تونس لم تتلق، خلافًا للمغرب والجزائر، تـسرب الهجرات المستمر الذى شهدته البلدان الأخرى منــذ أواخــر القــرن الخامس عشر. ولقد تدفقت الهجرات على تونس بــصورة فجائيــة، وبأعداد كبيرة على أثر عملية الطرد التى وقعت فـــى عـــام ١٦١٤ حيث وصل إليها نحو ٨٠٠٠٠ موريسكي. وكانت تلك هـــى آخــر موجة، الموجة الأخيرة من أكثر المسلمين تشبعًا بالثقافة الإســبانية، وهؤلاء لم يجدوا فى تلك الأرض المــضيفة أيــة كيانـــات أقامهـــا مهاجرون أندلسيون فيما سبق، حتى ينضموا إليها.

تدخل السلطان العثمانى أحمــد الأول (١٦٠٣-١٦١٧) لــدى السلطات الفرنسية، وسلطات البندقية – حيث كان بلداهما قــد أوقفــا عددًا لا حصر له من الموريسكيين المطرودين- لكى تسهل السلطات هناك إجراءات المرور إلى البلاد الإسلامية، وفى الوقت نفسه طلــب من السلطات التركية فى تونس أن تستقبل الموريسكيين المطرودين. وقام عثمان داى، بعد قيامه بإعادة تنظيم البلاد، بانتهاء فترة التــدخل

الإسباني والصراعات الداخلية التي تفجرت بعد أن رسخت السلطة العثمانية وجودها، قام بإعفاء السفن التي كانت تقل موريسكيين من رسوم الموانئ ، ثم منح الموريسكيين إعفاءات ضريبية، وأقطعهم الأراضي اللازمة للإقامة، إضافة إلى ما كفله لهم من حماية على الصعيد الرسمي.

أقام الموريسكيون في ضواحي تونس، وفي وادي نهر مجيردة Meyerda، وفي السهول الشمالية والممتدة من بنزرت إلى تونس، ونابل Nabuel وكذلك زغوان Zaghouan، بجانب الجبل الذي يمد مدينة تونس بالمياه عبر ممر مائي. مازالت هناك في تلك المناطق قرى كان جميع سكانها موريسكيين، ولم تزل خصائصهم العمرانية والمعمارية قائمة هناك وخاصة في تستور Testur، وفي قلعة الأندلس، وغرومباليا Grumbalia. وفي بنزرت مازال هناك حي يدعى حي حومة الأندلس، أي "حي الأندلسيين" وعلى محراب الجامع الكبير في تستور، تاج من فن الباروك. هو الفريد في العالم، وينسب إلى الموريسكيين أيضًا ميدان طبربة Teburba وهو ذو طابع إسباني بحت، وكذلك مختلف النافورات العامة المتوفرة في البلدان التي كان يقطنها الموريسكيون. تميز هؤلاء السكان (الموريسكيون) بالأعمال المدنية المتعلقة بالري، وشق مجاري المياه التي كانت تمد مدينة تونس بالمياه.

أقام الموريسكيون فى هذه القرى الصغيرة فى تجمعات متجاورة، نظمت على نظام الجماعات Aljamas نفسه ، وطبقت نظام الرئاسة نفسه بها، وكان أول شيخ للأندلسيين، وهو ما لدينا بيانات مكثفة عنه، هو لويس ثاباتا Luis Zapata، ثم جاء بعد ذلك ببضعة عقود، التاجر والثرى الكبير مصطفى دى كارديناس. وكانت للموريسكيين مؤسساتهم الخيرية الخاصة، ومدرسة عليا لشباب الموريسكيين . وكان موريسكيو تونس، الذين قدموا من وادى نهر الإبرو، ومن القشتاليين (قشتالة القديمة وقشتالة الحديثة) لا يعرفون العربية، كما كانوا يدعون بأسماء إسبانية، وعلى الرغم من تغييرهم لاسمهم الرسمى بشكل سريع، فإن الألقاب وأسماء الأماكن ظلت قائمة على مدى قرون. وحصل الموريسكيون فى سنوات وصولهم على تصريح بأن يتلقوا التعليم الإسلامى باللغة الإسبانية، حتى يمكنهم مواصلة الكتابة بها. وثمة مخطوطات موريسكية تونسية كتبت بالإسبانية(*)، ومازالت محفوظة، وخاصة فى الموضوعات الدينية، والمتعلقة بالأخلاق، وكذلك الموضوعات الشعرية والأدبية. إلا أنه فيما يبدو، فإن سيطرة اللغة الإسبانية فى الكتابة لم تتجاوز الجيل

---

(*) أجرينا دراسة على إحدى هذه المخطوطات التى حررها موريسكى باللغة الإسبانية . انظر : د. جمال عبد الرحمن، ثقافة موريسكى، قراءة فى المخطوطة رقم ٩٦٥٤ بمكتبة مدريد الوطنية"، المؤتمر العالمى الحادى عشر للدراسات الموريسكية، زغوان، تونس، ٢٠٠٢ . (المراجع)

الأول من المهاجرين، وبالتالى، وبعد فترة، أغلقت السلطات التونسية المدارس التى يتم التعليم فيها باللغة الإسبانية، وأصدرت أوامرها بأن يتلقى الأطفال الموريسكيون تعليمهم فى المدارس العربية. وفى منتصف القرن الثامن عشر انتهى استخدام الإسبانية فى الحديث الشفوى فى تونس.

شكل الموريسكيون عنصرًا أساسيا فى تألق تونس خلال العصر العثماني. تخصصوا في الأنشطة البحرية، كما امتهنوا الزراعة أيضًا (وخاصة الزراعة المكثفة) والتجارة، ومارسوا الحرف الحضرية. تركوا بصماتهم واضحة في فنون البناء وكذلك في جميع الفنون المتعلقة بصناعة الخزف. ومن تراث الموريسكيين أيضًا برزت صناعة النسيج، النسيج الفاخر، بل واهتموا بصناعة الحرير، والتطريز، والديباج، وصناعة القياطين، واحتكروا هناك، على وجه الخصوص تصنيع القلنسوات وتسويقها، وهى غطاء الرأس الأحمر المصنوع من اللباد الذى يتميز به التونسيون.

خلاصة القول هنا أنه من الملاحظ أن الموريسكيين، سواء كانوا مهاجرين أو مطرودين إلى الشمال الإفريقى، احتفظوا بخاصية مميزة، موازية لما كانوا عليه فى شبه الجزيرة (على مدى قرن من الزمان على الأقل) : الاشتغال بالزراعة المكثفة، والرى، والحرف

الحضرية، وبخاصة الحرف المتعلقة بفنون المعمار، وصناعة الحرير والمنسوجات، والتجارة. كما مارسوا الأنشطة التى كانت شائعة لدى تجمعات شبه جزيرة إيبريا ولدى ورثتهم فى المغرب، وتفوق الموريسكيون فى تلك التجمعات المغربية أيضًا فى نقل التقنيات والمعارف المتقدمة فى التطور فى شبه الجزيرة، وبوجه خاص جدا مختلف فنون الحرب، والمدفعية بالذات. وأما بالنسبة للأسلحة النارية فقد عملوا بها اعتبارًا من التصنيع وحتى الاستخدام بوصفهم جنودًا، بيد أنهم ابتكروا أيضًا تقنيات جديدة فى عالم البناء، وفى العمران - حيث أضافوا مخططات عصر النهضة - وفى الرى، بل حتى فى المنتجات الزراعية الجديدة.

أدخل الموريسكيون فى شمال إفريقيا منتجات زراعية سبق أن عرفتها شبه الجزيرة من أمريكا. منها على سبيل المثال نبات الصبار، والذى تتميز به البيئة فى شمال إفريقيا، وهو ما أسماه الفرنسيون "تين البربر"، وهو الصبار الهندى الذى أحضره الإسبان من العالم الجديد.

اقترن طابع التهجين المتأصل فى الثقافة الموريسكية بصورة كبيرة مع الطرد ، " فإذا كان الموريسكيون فى إسبانيا يعتبرون مسلمين تمامًا، أو يعاملون على أنهم جنس غريب غير قابل للتكيف،

باعتبارهم ارتبطوا فى مناطق معينة بالكلام باللغة العجمية Aljamia، وبأسلوب خاص فى الكتابة، فإنهم كانوا يعتبرون غرباء أيضًا فى شمال إفريقيا، وكانت أكبر تهمة تلصق بهم أنهم يعتنقون المسيحية، أو أنهم فى حاجة إلى الأسلمة من جديد"، على الأقل كانت لغة التخاطب بينهم هى الإسبانية وكذلك لغة الكتابة. وكان الموريسكيون ناقلين للثقافة الأندلسية، بل والإسبانية على وجه الخصوص، ثقافة إسبانية مشبعة بخصائص عصر النهضة والتأثير الأمريكى . وعلى خلاف ما حدث فى إسبانيا، استغرق الموريسكيون فى المغرب فترة تقل عن قرن من الزمان حتى يتكيفوا تمامًا مع مجتمع الأغلبية(*). فلم يبق من آثار أصولهم التى ترجع إلى شبه الجزيرة سوى مجرد حفنة من الألقاب، وذكرى لبعض العائلات الكبيرة.

---

(*) هذا منطقى لأنهم هاجروا إلى مجتمع يتفق مع قيمهم الإسلامية التى دافعوا عنها فى إسبانيا. (المراجع)

## تعليق على المراجع

تتناول هذه القائمة، وإن كانت حديثة الظهور، مجموعة مــن الكتب يسهل على القارئ غير المتخصص أن يحصل عليهــا دون أن يضطر إلى الاستعانة بالكتب أو المجلات المتخصصة.

العناوين الخاصة بالمستعربين والمدجنين قليلة، ولعل أقــرب قائمة خاصة بهم تتمثل فــي كــم كبيــر مــن المقــالات الفرديــة المتخصصة، ومن المراجع المفيدة :

**Click. The Islamic and Christian Spain in the Early Middle Ages. New Jersy- 1979**

وقد ترجم هذا الكتاب إلى الإسبانية تحت عنوان:

**Cristianos y Musimanes en la España Medieval (711-1250)- Madrid, Alianza editorial, 1991**

مسيحيون ومسلمون في إسبانيا العصور الوسطى.

ويستطيع القارئ أن يطالع المجلد المجمع بعنوان :

**Minorités religueses dans l'Espagne mediévale. Vol 63-64. (1992)- Revue des mondes Musulmans el de la Mediterranée.- Aix- en – Provence.**

وتتناول تراكيب وقوائم مفيدة للغاية.

١ – وفيما يتعلق بالمستعربين Mozárabes ، فإن الجزء الأكبر من الأعمال الحديثة يركز على المسيحيين فى الأندلس بصفة أساسية، مع تنويهات محدودة إلى هجرتهم إلى مناطق أخــرى. ومــن هــذه الكتب:

**Christy, A. Cristian in al-Ándalus (711-1100), Richmond Surry 2002.**

ثمة استثناء ينبغى أن يوضع فى الاعتبار هو كتاب :

**Millet-Gérard, D. Chrétiens mozárabes et culture islamique dans l'Espagne de VII-n-Paris 1984**

(المسيحيون والثقافة الإسلامية في إسبانيا خلال القرنين الثامن والتاسع).

**Manzano Moreno E. La frontera de Al-Ándalus en la época de los omeyas- Madrid CISC, 1991.**

حدود إسبانيا فى عهد الأمويين

إخلاء واستعمار وادى نهر الدويرو خلال الفترة مــن القــرن الثامن إلى القرن العشرين.

وحول كل من المستعربين والمدجنين فى منطقة طليطلة انظر:

- Molénat, J. P., Campagne et monts de Toléde du XII au XVéme siécle- Madrid, Casa de Velazquez, 1997.

- ريف إسبانيا وتلالها.

هذا ولا يزال هناك مؤلف قديم صدر ضمن مجموعة، له أهمية، وأن كان مضمونه قديمًا فى كثير من الوجوه، إنه كتاب.

- Cagicas, 1. de las, los mozárabes, Madrid, 1947- 1948.

- المستعربون

انظر أيضًا كتاب :

- Gonzalez Palencia, A., Los mozárabes de Toledo en los siglos XII y XIII, Madrid, 1962-1930.

– المستعربون فى طليطلة فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر.

٢ – وثمة دراسة مماثلة تتعلق باليهود، حيث لم يصدر كتاب عن اليهود الذين هاجروا من الأندلس خصيصًا، وبالتالى إما إن نطالع عملاً مجمعًا مشتركًا حول أولئك الذين عاشوا فى الأندلس مثل:

- Ashtur, E. The Jews of Moslem Spain- 2 vol. Filadelfia, 1979.

- يهود إسبانيا المسلمة.

- وإما أن نبحث عن الموضوعات الخاصة بالمهاجرين، فـــى القوائم العريضة التى تتناول يهود قشتالة وأراغـــون فـــى العـــصور الوسطى. وهناك مؤلف جيد هو :

- Baer, Y., Historia de los judios en la España Cristiana, Madrid – Atlanta, 1981- 2 vol.

تاريخ اليهود فى إسبانيا المسيحية.

وقد ترجم هذا الكتاب عن العبرية إلى الإسبانية.

هذا ويمكن استخراج تنويهات منعزلة حول يهود الأندلس مـــن مؤلفات حول اليهودية فى العصور الوسطى، فى قشتالة ، وأراغـــون وحول قشتالة كتاب.

- Valdeón, J., Los conflictos socials en el Reino de Castilla en los siglos XIV y XV, Madrid – 1975.

- الصراعات الاجتماعية في القرنين الرابع عـــشر والخـــامس عشر فى قشتالة .

- وللمؤلف نفسه كتاب

- Los Judios de Catilla y la Revolución Trastámara.

**٢ – يهود قشتالة وثورة تراستمارا**

- وعن أراغون يمكن الرجوع إلى :

**- Romano D. Los funcionarios judíos de Pedro el Grande de Aragon, Barcelona, 1983.**

- الموظفون اليهود لدى بدرو العظيم، ملك أراغون.

**- Hinojosa Montalvo, J., Los Judíos del Reino de Valencia de 1391 a 1992- Valencia 1991.**

- وقد ترجم هذا الكتاب إلى الإنجليزية تحت عنوان :

**- The Jews of the Kingdom of Valencia : from persecución toexplusión, 1391-1492, Jerusalén – 1993.**

- يهود مملكة فالنسيا من الاضطهاد إلى الطرد.

ونجد فى المؤلف المجمع بعنوان : (عمليات إبعاد أراغونية **Destierros Argoneses. Judios y moriscos**، اليهود والموريسكيون، الصادر عن مؤسسة فرناندو الكاثوليكى **Fernando el católico**، عام ١٩٨٨ فى سرقسطة، قائمة مكتبية جيدة بأهم المتخصصين فى هذا الموضوع، بما فى ذلك المدجنين. ولعل من بين أهم الباحثين فى مجال الأقليات، فى أراغون (ماريا لويسا لا ديسما **María Luisa Ladesma**، وخ. ريبرا سانس **J. Riera Sans**، ود. رومانو **D. Romano**،

وأ. بلاسكو A. Blasco) فقد نشر هؤلاء أبحاثهم فى شكل مقالات نشرتها مجلات متخصصة، أو شاركوا بها فى مختلف الأعمال الجماعية، منها على سبيل المثال: تاريخ أراغون Historia de Aragón، أو تاريخ إسبانيا Historia de España، لمنينديث بيدال Minendez Pidal ويتضمن كلاهما دراسات جماعية جيدة عن اليهود والمدجنين.

٣ - وتتكون قائمة الكتب التى تتناول المدجنين أيضًا، فى معظمها من دراسات أحادية أو فردية، محلية، متناثرة على صفحات عدد كبير من المجلات العلمية، أو فى مجلدات تاريخية، منها المؤلفان السالف ذكرهما، أو فى كتاب تاريخ قشتالة Historia de Castilla الصادر عن جمعية قشتالة وليون Junta de Castilla y Leon. وإنه من الأهمية بمكان الاهتمام بمنشورات مركز دراسات المدجنين فى طرويل Centro de Estudios Mudéjares de Truel، والذى نشر محاضر المؤتمرات التى عقدت حول المدجنين، والتى يعقدها بشكل دورى، إضافة إلى الدراسات الأحادية أو الفردية . فقد نشرت حتى الآن محاضر المؤتمر السابع (٢٠٠٢). وكما هو الحال بالنسبة للموريسكيين، يتعين الاهتمام بمجلة شرق الأندلس Sharq Al-Andalus التى تصدرها جامعة أليكانتى، وهى بالإضافة إلى كونها مقصورة على المدجنين والموريسكيين تتضمن قوائم مكتبية مهمة.

أما مجلة ألخاميا **Aljamía** التى تصدرها جامعة أوبييدو **Oviedo** فهى مخصصة تمامًا لفهارس الكتب والمقالات(*).

وعلى الرغم من تناثر المراجع الخاصة بالمدجنين بالذات، فإن هناك مؤلفات مجمعة وموجزة حديثة، مزودة أيضًا بقوائم مكتبية طويلة تساعد على توجيه القارئ الذى يرغب فى التعمق فى دراسة موضوع معين. ومن أقدم هذه الأعمال المجمعة، والتى ما زالت على قدر كبير من الفائدة، نظرًا لأنها مزودة بتذييل وثائقى على درجة كبيرة من الثراء، مؤلف فرنانديث وغونثاليث، الصادر تحت عنوان وضع المدجنين الاجتماعى والسياسى فى قشتالة، الصادر فى مدريد، ١٨٦٦

**- Fernández y Gonzalez, M. Estado social y politico de los mudéjares en castilla, Madrid 1866.**

ومن هذا الكتاب نسخة فاكسميلى – صادرة فى مدريد إيبريون **Hiperión** ١٩٥٥.

وفى رأيى أن دليل هارفى، إنما هو مرجع رائع، فهو يجمع

---

(*) تحولت هذه المجلة إلى مصدر لا غنى عنه للباحث فى الموضوعات الموريسكية، فهى تقدم موجزًا من عدة صفحات عن كل كتاب ينشر فى هذا المجال. هذا بالإضافة إلى قوائم المراجع وأخبار المؤتمرات. (المراجع)

بين دراسة متزامنة مع ما حدث فى الأندلس، وبين مختلف طوائف المدجنين، والكتاب بعنوان :إسبانيا الإسلامية ١٢٥٠-١٥٠٠ الصادر فى شيكاغو ولندن – جامعة شيكاغو برس

**Harvey, L.P. Islamic Spain- 1250-1500, Chicago y Londres, Chicago University Press, 1990.**

ولعل أحدث دليل صدر، وهو مطروح حاليا ويتضمن مجموعة من الوثائق هو كتاب : هينيخوسا مونتالبو

**- Los mudéjares. La voz del Islam en la España cristiana- Hinojosa Montalvo J. Centro de Estudios mudéjares, Truel 2002.**

المدجنون : صوت الإسلام فى إسبانيا المسيحية

وهو من جزأين الثانى منهما مخصص للوثائق.

هناك سلسلة من الكتب أيضًا، تتناول المدجنين بالدراسة من زاوية التقسيم الإقليمى. وسوف أشير فقط إلى أهم هذه الكتب:

قشتالة :

- **Castilla : Lodero Quesada, M.A. Los Mudéjares de Castilla en tiempos de Isabel la católica. Burgos- 1968**

– المدجنون فى قشتالة فى عصر إيسابيل الكاثوليكية.

ويمكن قراءة هذا الكتاب مع كتاب آخر للمؤلف نفسه وهو :

- **Granada, Historia de un pais islámico-Madrid 1978.**

– غرناطة : تاريخ دولة إسلامية.

ومن مؤلفات الكاتب نفسه .

- **Granada después de la conquista. Repobladores y Mudéjares- 1988.**

– غرناطة بعد الغزو.

- **Galán Sanchéz A., Los mudéjares del reino de Granada. – Granada de 1991.**

– مدجنو مملكة غرناطة.

- **García Arenal M. y Leroy B., Moros y Judíos en Navarra en la Baja Edad Media- Madrid, Hiperion – 1981.**

- مسلمون ويهود فى نابارًا.

هناك بعض الدراسات الفردية، والخاصة بمناطق معينة، وتستهدف الموريسكيين . تبدأ هذه الدراسات بعدد من الفصول المخصصة للمدجنين ، مثل :

- Tapia Sánchez S., La comunidad morisca de Ávila, Salamanca, Publicaciones de la Universidad 1991.

- جماعة الموريسكيين في آبله.

أراغون :

لعله من المفيد أن نبدأ بالتعرف على الوضع هناك فيما قبل الغزو المسيحى، ولذلك يمكن الاستعانة بـ :

- Viguera M. J. Aragón musulmán, Zaragoza, 1981 Reed 1988.

- أراغون المسلمة

ويتركز الجانب الأكبر من الكتب فى العصور الوسطى المتقدمة ومنها :

- Boswell, J. The Royal Ireasure : Muslim communities under the crown of Aragón in the fourteenth century. New Haven y Londres, Yale University Press, 1977.

الكنز الملكى : الطوائف المسلمة تحت تاج أراغون فى القرن الرابع عشر .

- **Nirenberg D. Communities of violence. Persecution of minorities in the Middle Ages, Princeton University Press .**

- طوائف العنف، اضطهاد الأقليات فى العصور الوسطى.

- **Ferrer, M.T., Els sarrians de la corona , Catalana Aragonesa en el siglo XIV, Barcelona CSIC 1990.**

- المسلمون فى المملكة القطالونية الأراغونية فى القرن ١٤.

فالنسيا :

فالنسيا تحظى بقائمة مكتبية كبيرة جدا وإن أكثر المشاركات وفرة، إذا بدأنا طبقًا للتسلسل التاريخى، أى بداية من القرن الذى تم فيه الغزو المسيحى، هى كتابات بيرنز **Burns**، صاحب سلسلة من الكتب المهمة التى تتناول فالنسيا خلال القرن الثالث عشر، ويسويها بإحدى ممالك الحملات الصليبية فى بلاد الشرق، ويصف وضعها بوضع ما قبل الاحتلال. ومن أشهر عناوين كتبه .

- **The crusader kingdom of Valencia. Reconstruction of thirteenth century Frontier, Cambridge 1979.**

- مملكة فالنسيا الصليبية.

- وقد ترجم هذا الكتاب إلى الإسبانية تحت عنوان :

**- El Reino de Valencia en el siglo XIII. 2 vol. Valencia 1982.**

**- Medieval Colonialism : Post crusader exploitation of Islamic Valencia, Princeton, 1975.**

- استعمار العصور الوسطى . استغلال فالنسيا الإسلامية في أعقاب الحروب الصليبية.

**- O. Muslim, Christians and Jews in the Crusader Kingdom of Valencia – Cambridge 1984.**

- المسلمون، والنصارى، واليهود في مملكة فالنسيا المسيحية.
ولكن هناك مؤلفات أخرى متعددة للكاتب نفسه، وذلك بالإضافة إلى عدد من المقالات المتنوعة.

وتناول ب. جيسكار الفترة نفسها بالدراسة، ولكن من رؤية مختلفة تمامًا . فكتب

**- Guichard P. Les musulmans de Valence et la Reconquete (XII-XIII siecles), Damasco, 2 vol. 1990-1991.**

– مسلمو فالنسيا وحرب الاسترداد.

وتغطى كارمن بارثيلو الموضوع بشكل أكثر توسعًا (متضمنًا الموريسكيين ) فى :

- **Barceló, C. Minorías islámicas en el país Valenciano, 1984.**

- الأقليات الإسلامية فى فالنسيا.

وانظر أيضًا.

- **Ferrer : Mallol, M.T. Les aljames sarraines de la governació d'Oriola en el segle XIV : Cristians I sarraïns al pais valencia, Barcelona, 1988.**

- **La frontera amb L'islam en el segle XIV:**

– الحدود مع الإسلام فى القرن الرابع عشر.

- **Cristians I Sarrains al paía Valencia – Barcelona, 1988.**

– مسيحيون ومسلمون فى فالنسيا.

- **Meyerson, M. The muslims of Valencia in the age of Fernando and Isabel : Between Coexistence and crusade – Berkeley, 1991.**

- مسلمو فالنسيا فى عهد فرناندو وإيسابيل : بين التعايش والحملة الصليبية، وقد ترجم هذا الكتاب إلى الإسبانية.

وبالنسبة لفن المدجنين:

- **Borrás G., Arte Mudéjar aragonés, Zaragoza, 1978.**

- فنون مدجنى أراغون.

ونشرت منظمة متاحف بلا حدود مؤخرًا، مجلدًا خاصا بفن المدجنين فى أنحاء شبه الجزيرة جميعها ، فى صورة رائعة، ومسار تصويرى جميل . صادر عن **(Madrid, Electra 2001)** .

٤- أما من يرغب فى التعرف على الموريسكيين، فهناك مرجعان لا غنى عنهما :

- **Dominguez Ortiz, y Vicente, B. Historia de los moriscos. Vida y tragedia de una minoira. Madrid – Revista de Occidente, 1981, varias ediciones, la última, Madrid, Alianza Ed.1997(*).**

- **Los moriscos antes y después de la expulsión Madrid Maphre, 1992(**).**

---

(*) تحت الطبع حاليا الترجمة العربية لهذا الكتاب تحت عنوان "تاريخ الموريسكيين. مأساة أقلية" ترجمة عبد العال صالح، مراجعة وتقديم جمال عبد الرحمن، المجلس الأعلى للثقافة. (المراجع)

(**) صدرت الترجمة العربية لهذا الكتاب تحت عنوان "الموريسكيون فى إسبانيا وفى المنفى" ترجمة وتقديم جمال عبد الرحمن ، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ٢٠٠٥. (المراجع)

تاريخ الموريسكيين – حياة أقلية ومأساتها.

الموريسكيون في إسبانيا وفي المنفى.

هذه مراجع لا غنى عنها، وليست في حاجة إلى أى تعليقات وهى أفضل مدخل ممكن إلى الفصلين الرابع والخامس من هذا الكتاب.

وللدخول في محيط المنشورات الصادرة حول الموريسكيين، يتعين توفر دليل، لا لأن الكمية كبيرة فحسب، بل لأن المنشورات الصادرة تحتاج إلى شرح للموضوعات والمناقشات التى تنطوى على جانب كبير من المراجع. وسوف أشير هنا إلى قائمة من الكتب التى صدرت خلال السنوات العشر أو الخمس عشرة سنة الأخيرة، منها كتب حديثة، ومنها عدد لا حصر له من الكتب الكلاسيكية التى أعيد طبعها.

ولقد صدرت طبعة جديدة من مؤلف يورنتى **Llorente**(*) بعنوان

- **Historia de la Inquisición española, Madrid (Hiparión)**

---

(*) Juan Antonio Llorente ، قس ومؤرخ إسبانى أمين عام محكمة التفتيش. (المرجع)

- تاريخ محكمة Losantos التفتيش الإسبانية. وكتب مقدمة هذا الكتاب لوسانتوس Losantos وصدر أيضا :

**- H. CH. Lea, Los moriscos españoles y la inquisición en Alicante (1990)- con estudio preliminar de Rafael Benitez Sánchez Blanco.**

- الموريسكيون الإسبان ومحكمة التفتيش فى لقنت (أليكانتى) وكتب **Benite Sanches Blanco** مقدمة تمهيدية لهذا الكتاب.

- وأعادت سلسلة **Archivom** التى تصدرها إدارة النشر بجامعة غرناطة أعمالا مهمة طبع منها:

**- Hortado de Mendoza, La Guerra de Alpujarras.**

- حرب البشرات

**- Hurtado de Mendoza y Gines Pérez de Hita, La Guerra de los moriscos.**

- حرب الموريسكيين.

**- Lognás, Vida religiosa de los moriscos.**

- حياة الموريسكيين الدينية.

- **Boronot Barrachina, Los moriscos españoles y su expulsión.**

- الموريسكيون الإسبان وطردهم.

- **Godoy, Historia crítica de los falsos cronicones.**

- تاريخ نقدى للأخبار الزائفة.

- **Gallego y Borin y Gamir Sandobal, los moriscos del reino de Granada segun el sinodes de Guadix.**

- موريسكيو مملكة غرناطة على ضوء مجمع وادى آش الكنسى.

- Marmol, Rebelión y Castigo de los moriscos.

- ثورة الموريسكيين ومعاقبتهم.

- **Carrasco Urgoite, el moro de Granada en la literatura.**

- مسلم غرناطة فى الآداب الأوروبية(*) .

كانت الكتب التى تحدثت عن الموريسكيين وفيرة، فلم تخل فترة تاريخية منذ عملية الطرد التى حدثت ١٦١٠-١٦١٤ دون أن

---

(*) صدرت الترجمة العربية للكتاب، ترجمة شيرين محمود الرفاعى، مراجعة وتقديم جمال عبد الرحمن، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة ٢٠٠٥. (المراجع)

تولى اهتمامًا للقضية الموريسكية. إلا أن السنوات الأخيرة شهدت طفرة حقيقية فى الدراسات الموريسكية، ويتضح الاهتمام والعناية بهذه القضية فى كمية المؤلفات "الكلاسيكية" التى أعيد طبعها، وفى عدد الدورات، والمؤتمرات، والحلقات الدراسية، والمحاضرات، التى تناولتها من مختلف الزوايا، وما دار حولها من أساطير. وقد قامت كل من فالنسيا وغرناطة بجهود تتعلق بالنشر سواء بالنسبة للمؤلفات الضرورية أو إصدار الطبعات المكررة أو بالنسبة لنشر المقالات فى المجالات الخاصة بالجامعات. وتخصص جامعة أليكانتى Alicante مجلتها شرق الأندلس Sharq al-Ándalus للدراسات التى تتناول المدجنين والموريسكيين، وينظم مركز سيرمدى CEROMDI بتونس، والذى يتولى إدارته الأستاذ عبد الجليل التميمى مؤتمرات دورية، ويقوم المركز بنشر مضابط هذه المؤتمرات(*). هذا وتقوم أيضًا مجلة كرونيكا نوفا Chrónica Nova التى تصدرها جامعة غرناطة بنشر العديد من المقالات الخاصة بالموريسكيين. وقد خرجت إلى الضوء أيضًا وثائق جديدة، وهى محلية بصفة عامة، بل ووثائق عربية، ومصادر أدبية، منها الأدب الألخميادو Aljamiada (كتابة إسبانية

---

(*) تحول مركز الدراسات الموريسكية والعثمانية والبحوث والوثائق إلى "مؤسسة التميمى للبحث العلمى" ولا يزال يقوم بدوره فى تنظيم المؤتمرات عن الموريسكيين ونشر أعمال هذه المؤتمرات. (المراجع)

بحروف عربية)، صدرت فى السنوات الأخيرة. ولا يتسع المجال هنا لتناول جميع هذه الإصدارات، بل يتعــذر مجــرد ســرد عنــاوين المؤلفات. وسوف أبدأ فى عمل تصنيف إرشادى حــول الاتجاهــات والاهتمامات التى تدور حولها قوائم الكتب الصادرة حــديثًا والتــى تتناول قضية الموريسكيين.

إن وجود أقليات إسلامية جديدة فى أوروبا، مع وجود حركــة هجرة مغربية تتصاعد يومًا بعد يوم فى إسبانيا، ليسا بمنأى عن هذه الطفرة المتمثلة فى الاهتمام بالموريــسكيين. ويتبــين مــن بعــض المشكلات فى مجتمع جديد، قد يضم بين جنباته عددًا من التجمعــات الإسلامية، ربما تجعل منه مجتمعًا تعدديا بطريقة أو بأخرى، حتــى وإن كان هذا رغمًا عنه. يتضح ذلك فى القلق الذى نجده فى كثير من الدراسات وفى الأسلوب الجدلى الذى كتبت به هذه الدراسات. ذلــك لأن إشكالية الموريسكيين ما زالت بعيدة عن أن تهدأ. ويكفى أنها قد بدت مطروحة فى إطار عبارات جديدة، لا تقتصر على الدفاع عــن قرار الطرد أو إدانته فحسب، كما كان الحال منذ قرن مــن الزمــان (وإن كانت تتعرض أحيــانًا إلى أنه كان يمــكن تجنــب هذا القرار أو عدم تجنبه) بل ركزت بصفة خاصة على السمات الإسلامية لهــذه الجماعة، أو على إمكانية اندماجها، أو على الطرق التى طرح فــى إطارها موضوع الاندماج أو الرفض.

كان كتاب ماركيث بيانوبيا Marquéz Villanueva الذى صدر عام ١٩٩١، نقطة انطلاق نحو إجراء شكل جديد من النقاش. وينحصر موضوع هذا الكتاب فيما يلى : أن عملية التأريخ قد وقعت فى ثلاثة أخطاء عندما زعمت أن هناك خرافات ثلاثة : خرافة الإجماع على كراهية الإسبان للطائفة الموريسكية وخرافة الموريسكى الرافض للاندماج، ثم الادعاء بإلصاق صفة التآمر الدائم بالموريسكيين. ويقول ماركيث أن هذا يرجع إلى أن المؤرخين استقوا المعلومات من مصادر رسمية "مسمومة"، وأغفلوا أصول الأدب، والذى تنطلق من خلاله الأصوات المنشقة، إضافة إلى تيار فكرى مناهض. ويدعو ماركيث إلى قراءة جديدة لتلك المصادر الأدبية تستخلص منها معان جديدة. وتسير فى هذا الخط نفسه أجمل الدراسات الأدبية التى أجراها سوليداد كاراسكو أورغويتى S. Carrasco Urgoite (١٩٨٩)(*).

كتب ألبارو غالميس Álvaro Galmés (١٩٩٣) بدوره كتابًا يخالف مؤلف ماركيث، يرد فيه عليه. فهو يرى أن طائفة الموريسكيين مجتمع غير قابل "للتكيف"، بدليل أنها احتفظت بهويتها

(*) صدرت عن المجلس الأعلى للثقافة ترجمتان لكتابين لهذه الباحثة المتميزة : "مسلم غرناطة فى الآداب الأوروبية"، ترجمة شرين محمود الرفاعي، مراجعة وتقديم جمال عبد الرحمن. و"المسلم عدواً وصديقاً"، ترجمة عبد العال صالح، مراجعة وتقديم جمال عبد الرحمن.(المراجع)

رغم كل العقبات. ويرى غالميسGalmés ، أن الموريسكيين كتلة صماء ليس فيها فروج. وأن الطرد كان أمرًا محتومًا. وهو يرتكز أيضًا على مصادر أدبية، هى الأدب الألخميادو.

يرى ماركيث فى الأقليات عنصرًا من العناصر المكونة لمجتمع إسبانى متسامح ومتعدد الثقافات يصبو هو إليه. إنه يقول – دون أن يصل إلى إقناعنا فى رأيى– إن هذا المجتمع المثالى قد وجد بالفعل. يقول أيضًا إن مجتمع الأغلبية لم يكن متجانسًا ولم يكن هناك إجماع على كراهية الأقليات. (أما) غالميس فيرى أن الموريسكيين كانوا يمثلون مجتمعًا يتمسك بالإسلام تمسكًا تاما ويقول برغبة الموريسكيين فى احتفاظهم بهويتهم. يتحدث ماركيث بيانوبيا عن طمس الهوية الثقافية للأقليات ويؤكد أن الطرد كان يمكن تجنبه على أساس أن إسبانيا كان فيها من الرجال والعزم ما يسمح لها بتجنب الطرد.

ويؤكد بيرثيبال Perceval (١٩٩٧) بدوره الإجماع على الكراهية وعلى أن الإنسان الموريسكى فريد من نوعه، وأنه كما تصفه النصوص الأدبية نموذج نمطى واحد اتصف بكل الخصائص السلبية، بما يثير التقزز والاشمئزاز، بل ويتصف بالشيطانية. وركز فانخول Fanjul أيضًا على الصورة الشعبية، من خلال الفولكلور والأمثال والأعياد الشعبية، التى تزخر بالكراهية والرفض. ولقد كان للحكايات التى رواها الأسرى الذين اختطفوا إلى شمال إفريقيا، وما لا قوه

هناك من معاملة وحشية، دور كبير فى تجسيد هذه الصورة السلبية (فانخول ٢٠٠٢)، ويقترح فانخول رسم صورة مخالفة (على خلاف الصورة التى رسمها ماركيث)، وهى صورة هزلية وكاريكاتورية أيضًا، ولكن ذات دلالة سلبية دائمًا، وذلك للرد على خرافة التعايش والتكامل(*).

الاستخدام غير المناسب المشوه لتعبيرات معاصرة وقديمة تاريخيا، نشهده واضحًا جليا عند رودريغيث دى ثاياس Rodriguez de Zayas (١٩٩٢)، والذى سجل نحو ثلاثمائة صفحة مقدمة لمجموعة غير مسبوقة من الوثائق، بكل أسف، مترجمة إلى الفرنسية ترجمة سيئة. ولعل ما يسعى ثاياس لإثباته يتمثل فى أن قرار الطرد هو بمثابة السابقة الأولى فى تاريخ العنصرية والتطهير العرقى. وبالنسبة للموريسكيين يصر على طرح يوازى الطرح الذى يؤكد عليه بنيامين نتنياهو بالنسبة لليهود المتنصرين، وهناك احتمال كبير أنه تأثر بذلك الطرح، ذلك لأن كتاب نتنياهو أثار حملة جدلية كبيرة، كما لاقى تغطية إعلامية تناولتها أجهزة الإعلام (خاصة بعد ترجمة كتابه "جذور محكمة التفتيش" إلى الإسبانية – مدريد ١٩٩٩). لقد أكد برنارد فنسنت B. Vincet أنه لم تكن هناك أى سياسة قائمة على

(*) يرى هذا المؤلف أن الأثر العربى الإسلامى فى غرناطة مجرد أسطورة ، لأن المسلمين قد أجبروا على مغادرة غرناطة بعد ثورة البشرات، ونرى أن كتاب خوليو كارو وباروخا (مسلمو غرناطة بعد عام ١٤٩٢ ترجمة وتقديم جمال عبد الرحمن ، المجلس الأعلى للثقافى) يتضمن ردًا شاملاً ودحضًا لهذه المزاعم. (المراجع)

مبادئ عنصرية، على الإطلاق : فالقضية بالنسبة له كانت ذات طابع ديني فقط.

هناك سمة مشتركة بين كل من ماركيث Marquéz ، وكاراسكو أورغويتي Carrasco Urgoite ، وغالميس Gálmés ، وفانخول Fanjul، وبيرثيبال Perceval وهي أنهم (على الرغم من اختلاف تفسيراتهم ) يستخدمون المصادر الأدبية قاعدة أو أساسًا لدراساتهم، ويتحدثون عن الموريسكي بوصفه فردًا، وكيانًا. إن غالميس، وماركيث، وبيرثيبال إنما هم مؤرخون للأدب، وإن السياق الذي يطرحون فيه الإشكالية، أو تحديد خصائص تلك الجماعة به قصور في رأي كثير من المؤرخين، إما بسبب الإيجاز الشديد، أو بسبب التعرض للجوهر دون الخوض في التفاصيل.

وأما المؤرخون (فنسنت Vincent، وبنيتس Benites، وغالان Galan، وغارثيا بدراثا Garcia Pedraza، وباريوس Barrios، وأغيليرا Aguilera إلخ) الذين انكبوا أساسًا على دراسات محلية، وعلى جماعات معينة، وعلى الجوانب الاقتصادية والاجتماعية، يرون المشكلة من زاوية أكثر دقة وتخصصية، حيث يتناولون مختلف الجماعات الموريسكية وفق خصائص جغرافية مختلفة، وحسب التسلسل التاريخي، فضلاً عن الجانب الاقتصادي، كما اتبعوا النهج نفسه بالنسبة لمجتمع الأغلبية، بمختلف درجاته (الكنيسة، والنبلاء، ومحكمة التفتيش، والتاج، والشعب بصفة عامة) وما اتخذته هذه

الطبقات من سياسات وإستراتيجيات متعاقبة (محاولات التنصير خلال الثلث الأول من القرن السادس عشر) أو تأثير عوامل أخرى مثل الصراع مع الأتراك، أو استفحال عمليات القرصنة، أو هدنة الاثنى عشر عامًا مع هولندا. يبدو أن المؤرخين بصفة عامة متفقون على أنه كانت هناك درجات مختلفة للاندماج، كما كانت هناك أيضًا درجات مختلفة بالنسبة لقبول المجتمع المسيحى أو رفضه، خلال مراحل مختلفة. فالأمر يتعلق إذن باختلافات منهجية ارتكزت على مصادر مختلفة، ولكن ينبغي أن ننبه إلى هذه الاختلافات، لأن قراءة كتب المؤرخين المحترفين، بما تتضمنه من وثائق أرشيفية، وبما تتميز به من أساليب تحليلية، وعرض للقضايا بشكل يتجاوز الخطوط العريضة، عادة ما تكون مملة وصعبة على القارئ غير المتخصص، بخلاف الكتب القائمة على نصوص أدبية. لا أقصد بهذا أن المؤرخين ينقصهم الاتجاه الفكرى أو الإيديولوجى (الأمر بعيد عن ذلك) بل إن المصادر شديدة التنوع، ومتعددة المصادر توضح مدى التذبذب والتغيرات التى تطرأ على الأوضاع المعقدة فى حد ذاتها.

إن نقطة الالتقاء التى تلتقى فيها هاتان المجموعتان من الباحثين هى أن قضية بناء الهوية الإسبانية تكمن فى خلفية كل منهما، وهى قضية بلغت درجة كبيرة من التطور فى هذا القرن الذى شهد الوجود الموريسكى. إن سمات هوية الإسبان خلال القرون الأولى من العصر الحديث تجرى صياغتها على أساس مناهضة مسلمى شمال إفريقيا، والسكان الأصليين فى أمريكا. وفى هذا المجال

تتبين ضرورة دراسة مدى التـشدد فـى المواقـف المـسيحية إزاء الأقليات المسلمة واليهودية التى شهدها القرن الخامس عشر، وخاصة فى النصف الثانى منه، بدءًا مـن النـشاط التـشريعى لكاتالينـا دى لانكستر وحتى حكم مدينة **Sentencia de Medina** أو دراسـة الكتـب الخاصة بالجـدل الـدينى، أو المـواعظ **(Echeverría (1991) 2002, Espalza (1999), Bernabé (1995)**.

إذا كانت كتب المؤرخين التى تناولت قضية الموريسكيين أقل إثارة للجدل فى هذا العقد الأخير، فربما يرجع السبب إلى أنهـم قـد تخلوا عن الخوض فى تلك الجوانب التى أدت إلى أوضـاع طغـت على الساحة ، أقصد هنا محكمة التفتيش بصفة خاصة. فـإن قـضية الموريسكيين، وموضوع محاكم التفتيش، قد تناولتها قائمة عريـضة من الكتب، شهدت فى عقد السبعينيات دفعة خاصة اعتبارًا من بعض المؤلفات منها :

**Cardaillac, L., Marisques et Chretien's un affrontment polémique : Paris, Klinsieck, 1971.**

وقد ترجم هذا الكتاب إلى الإسبانية تحت عنوان :

**Moriscos y Cristianos . Un enfrentamiento polémico, Madid,**

وعلى الرغم من أن هذا الكتاب لم يتناول محاكم التفتيش تحديدًا، فإنه تناول نشاطها بطريقة جديدة، وذلك لكى يصنع تاريخا ثقافيا واجتماعيا. وفى السياق نفسه كتبت غارثيا أرينال، كتابًا بعنوان

**Garcia Arenal Inquisición y Moriscos : los porcesos del tribunal de cuenca, Madrid, Siglo XXI, 1978- Reed 1983**

– محكمة التفتيش والموريسكيون : قضايا محكمة كوينكا (*).

شهد عقد السبعينيات دفعة جديدة فى إسبانيا بالنسبة للدراسات التى أجريت حول محاكم التفتيش، كما شهد أيضًا اتجاهًا جديدًا فى معالجتها، ومن هذه الدراسات دراسات أجريت حول ممارسات محكمة التفتيش تجاه الموريسكيين. ومن هذه الدراسات الكتاب الجماعى لـ :

**Cardaillac, L. y Vincent, B. (eds), Les morisque el l'inquistion, Paris, 1991.**

ويشتمل أدب العجمية **Aljamiado** على مؤلف جيد التركيب هو

**Wiegers, G.A, Islamic Literature in Spanish and Aljamiada : Yca**

---

(*) صدرت الترجمة العربية لهذا الكتاب، ترجمة خالد محمد عباس، مراجعة وتقديم جمال عبد الرحمن، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة ٢٠٠٤. (المراجع)

of Segovia (d. 1450), his antecedentes and succesoors, Leiden, E.J. Brill, 1994. الأدب الإسلامى بالإسبانية والألخميادية.

كذلك أصدرت سلسلة CLEAM عن دار Gredos للنشر والتى يتولى إدارتها أ. غالميس دى فوينتس Galmes de Fuentes ، العديد من الأجزاء الخاصة بطبع ودراسة المؤلفات باللغة الألخمادية.

٥- الموريسكيون فى شبه الجزيرة

Braga, Isabel Drumond, Mouriscos e Cristaos no Portugal quinhestista. Duas culturas e duas concepcoes religiosas en Choque, Lisboa, 1999.

الموريسكيون والمسيحيون فى البرتغال فى القرن الخامس عشر ثقافتان، ومفهومان دينيان فى صدام.

- Barrios Aguilera, M. Granada Morisca, La convivencia negada, Granada, 2002.

- غرناطة الموريسكية – التعايش المرفوض تأليف م. تاريوس أغيلرا

- Benitez Sánchez – Blanco, R., Heroicas decisiones. La monarquía católica y los moriscos Valencianos. Valencia, 2001.

- قرارات بطولية. الملكية الكاثوليكية، والموريسكيون الفالنسيون تأليف بنيتث سانشيث – بلانكور.

- Bernabé Pons, F. El evangelio de San Bernabé, un evangelio islámico español- Alicante, 1995.

- إنجيل برنابا. إنجيل إسلامى إسبانى – برنابا بونس.

- Bernabé Pons, L.F. El texto morisco del Evangelic de San Bernabé. Granada, 1998 Cardaillac, C. (ed).

- النص الموريسكى لأنجيل برنابا

- Les morisques et l'Inquisition – Paris 1990.

- الموريسكيون ومحكمة التفتيش.

- Espalza, Mikel de: Jesús entre judios y cristianos, y musulmanes hispanos (siglos VI-XVII) Granada Universidad – 1999.

- المسيح بين اليهود والمسيحيين والمسلمين الإسبان – إصدار جامعة غرناطة ١٩٩٩.

- Echervarría, Ana. The Fortress of Faih. The attcude towards Muslims in fifteenth – century spain.

- حصن الإيمان . الموقف من المسلمين فى القــرن الخـــامس عشر – إسبانيا

- Catalina de Lancaster – Madrid 2002.

- كاترين لانكستر – مدريد ٢٠٠٢.

- Galmés de Fuentes, Alvaro . Los moriscos (Desde su orrilla) Madrid 1993.

- الموريسكيون (من وجهة نظرهم)

- Fonjul, S., Al Ándalus contra España. La forja del mito. Madrid 2002.

- الأندلس ضد إسبانيا . خرافة ملفقة . مدريد ٢٠٠٢.

- Marqués Villanueva, Francisco . El problema morisco (desde otras laderas) – Madrid 1991.

- القضية الموريسكية (من وجهة نظـــر أخـــرى) – مدريـــد ١٩٩١.

- Perceval, José María. Todos son unos- Arquetipos, xonofabia y racismo.La imagen del morisco en la Monarquía española durante los siglos XVI y XVII. Almería, 1997.

- نماذج أصلية، كراهية الأجانب، وعنصرية صورة الموريسكى فى المملكة الإسبانية خلال القرنين ١٦و ١٧.

- **Zayas, Rodrigo de , Le moriscques, et le racism d'Etat Roris, 1992.**

- الموريسكيون وعنصرية الدولة.

٦- الموريسكيون بعد الطرد.

- **Bernabé Pons, L. El cántico spiritual del morisco hispano tunecino taylibi, Zaragoza, 1988.**

- الإنشاد الروحى للموريسكى التونسى الطيبيلى.

- **Espalza M. de y Pelit, R., Recueil d'etudes sur les moriscques anadalous en Tunisie, Madrid 1973.**

- سلسلة دراسات عن الموريسكيين الأندلسيين فى تونس .

- كتاب ناصر الدين على القوم الكافرين لأحمد بن قاسم الحجرى - دراسة نقدية مترجمة إلى الإنجليزية.

- **Latham, D. From Muslim spain la Barbary- Londres, 1986.**

من إسبانيا المسلمة إلى البربر.

- الأندلسيون وهجرتهم إلى المغرب خلال القــرنين ١٦و ١٧ محمد رزوق – الدار البيضاء (١٩٩٩).

# قائمة المراجع

- Ashtur, E. (1979) The Jews of Muslem Spain, dos vol. The Jewish Publication Society of América, Florida.

يهود إسبانيا المسلمة – جزآن.

- Baer Y. (1981) Historia de Los judíos en la España cristiana. Altalena- Madrid.

تاريخ اليهود فى إسبانيا المسيحية – مترجم عن العبرية.

- Barceló, C. (1984) Minorias islámicas en el Pais Valenciano- Universidad, Valencia.

الأقليات الإسلامية فى مملكة فالنسيا.

- Barrios Aguileral M. (2002) Granada Morisca, la convivencia negada. Editorial comares- Granada.

غرناطة الموريسكية والتعايش المرفوض.

- Benités Sanchez. Blanco, R. (2001) Heroicas decisiones. La Monarquía Católica y los moriscos Valencianos Inistitució Alfons el Magnanim- Valencia.

- قرارات بطولية. المملكة الكاثوليكية والموريسكيون الفالنسيون.

- Bernabé Pons. L. (1995), EL evangelio de San Bernabé, Un evangelio islámico español, Universidad Alicante .

إنجيل برنابا، إنجيل إسلامى إسبانى.

- Bernabé Pons. L. (1998) El Cántico espiritual del morisco hispanotunecino, Tailibi, Institución Fernando el Católico-Zaragoza.

النشيد الروحى، للموريسكى الإسبانى التونسى – الطيبيلى.

- Boswell (1977), The Royal treasure : Muslim communities Under the crown of Aragon in the Fourteenth century, Yale University Press New Haven y Londres.

- Braga, Isabel Drumond (1999), Moriscos e cristaos no Portugal quinhentista. Duas culturas e Duas concepciones religiosas en Choque, Hugin, Lisboa.

الموريسكيون والمسيحيون فى البرتغال خلال القرن الخامس عشر وصدام بين ثقافتين ومفهومين دينيين.

- Burns, I. (1967). The Gusader kingdom of Valencia. Reconstrucción of a Thirteenth century Frontier, University Press. Cambridge. Valencia, Del Cenio al Segura. 1982.

مملكة فالنسيا المسيحية.

- Burns, (1975) Medieval Colonialism : Pastcrusade Explotatión of Islamic Valencia, University Press. Princeton.

استعمار العصور الوسطى.

- Burns, (1984) Muslim, Christians and Jews is the Crusader kingdom of Valencia, University Press – Cambridge.

المسلمون، والمسيحيون، واليهود في مملكة فالنسيا المسيحية.

- Cardaillac L. (1971) Morisques et Cheritiens. Un affrontement polémique. Klinsieck, Paris.

موريسكيون، ومسيحيون، مواجهة جدلية – ترجم إلى الإسبانية(*).

- Cardaillac, L. (dir) (1990), Les Moriques et L'Inquisitión. Publisud.

---

(*) توجد ترجمة جزئية لهذا الكتاب إلى اللغة العربية. انظر : لوى كاردياك "الموريسكيون الأندلسيون والمسيحيون : المجابهة الجدلية" تعريب د. عبد الجليل التميمي، زغوان، تونس ، ١٩٨٩ . (المراجع)

الموريسكيون ، ومحكمة التفتيش.

Domninguez Ortiz, A., y Vincent, B. (1981) Historia de los moriscos. Vida y tragedia de una minoría. Revista de Occidente. Madrid. Varias ediciones, la última, Madrid, Alianza Ed. 1977.

تاريخ الموريسكيين، حياة ومأساة أقلية.

- Echevarría, Ana (1999), The fortress of faith . The attidue towards muslims in fifteenth century spain – Leiden – E.J. Brill.

حصن الإيمان.

- Espalza M. De y Pelit R. (1973) Recueil d'etudes sur los morisques andalous en Tunisie, Instituto Hispano arabe de cultura – Madrid.

دراسة حول الموريسكيين الأندلسيين في تونس.

- Espalza M.D. (1992) Los moriscos antes y después de la expulsión, Maphre, Madrid.

الموريسكيون فى إسبانيا وفى المنفى.

- Fernández y Gonzales M. (1995) Estado social y político de los mudéjares de castilla, Hiperion Madrid.

أوضاع المدجنين الاجتماعية والسياسية فى قشتالة.

**- Ferrer y Mallol, M. T. (1990) Els sarrains de la corona catalana- Aragonesa en el segle XIV CSIC- Barcelona .**

المسلمون التابعون للتاج القطالونى – الأراغونى فـــى القـــرن الرابع عشر.

**- Ferrer Mallol, M.T. (1988) Les aljames del Reino de la governació d' oriole XIV, CSIC- Barcelona.**

الجماعات الإسلامية فى مملكة أوريولا فى القرن الرابع عشر.

**- Galan Sánchez, A. (1991), Los mudéjares del Reino de Granada, Servicio de Publicaciones de la Universidad, Granada.**

المدجنون في مملكة غرناطة.

**- Galmés de Feuntes, Alvaro (1993) Los moriscos (desde su misma orilla) Institute egipcio de estudios islámicos – Madrid**

الموريسكيون من وجهة نظرهم.

**- García Arenal, M. Y Leray B. (1981), Moros y Judíos en Navarra en la Baja Edad Media – Hiparión, Madrid.**

المسلمون واليهود فى مملكة نابارًا في العصور الوسطى.

- García Arenal M. y Wiegers, GA (1991) Entre el Islam y occidente : vida de Samuel Palache, Judío de Fez Siglo XXI?

بين الإسلام والغرب : حياة صمويل باياتشى[*] يهـــودى مـــن ناس القرن ٢١، ص ١٥٥[**].

- Clic Th. (1979), Islamic and cristian spain en the early Midllc ages, University Press, Princeton. Traducido al español.

إسبانيا الإسلامية والمسيحية في العصور الوسطى المتقدمـــة. ترجم إلى الإسبانية

- Guichard, P. (1999-91) Les Muslimans de Jalence et le Reconquete (XII-XIII Siecles) Institut Francais de Damas, Damasco, 2 vol .

مسلمو فالنسيا وحرب الاسترداد.

- Harvey, L.P. (1990) Islamic Spain- 1250-1500 The University of Chicago Press, Chicago, Londres.

إسبانيا الإسلامية ١٢٥٠-١٥٠٠.

---

(*) هذا الكتاب ترجم إلى الإنجليزية تحت عنوان .A Man of three worlds

(**) ترجم هذا الكتاب إلى العربية . انظر "بين الإسلام والغرب" تأليف غارثيا أرينال وجيـــرارد ويغرس ترجمة ممدوح البستاوى، مراجعة وتقديم جمال عبد الرحمن، المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٥. (المراجع)

- **Hinojosa Montalvo J. (2002) Los mudéjare, La voz del Islam en le España cristiana (Centro de estudios Mudéjares, Teruel, 2 vol. El segundo dedicado a documentos.**

المدجنون، صوت الإسلام فى إسبانيا المسيحية، جزآن. الجزء الثانى خاص بالوثائق.

- **Ladero Quesada, M.A. (1969) Los Mudéjares de Castilla en tiempos de Isabel la Católica, Instituto Isabel la Católica, Valladolid, que puede leerse conjuntamente con el libro del mismo autor (1978), Granada, Historia de un País islámico, Madrid, de la que existen reediciones posteriores. O también de Ladera (1988) Granada después de la conquista repobladores y mudéjares, Universidad Granada.**

مدجنو قشتالة فى عصر إيسابيل الكاثوليكية، ويمكن قراءة هذا الكتاب مع كتاب للمؤلف نفسه بعنوان :غرناطة، تاريخ دولة إسلامية. أو كتاب: "غرناطة بعد الغزو. المستوطنون الجدد والمدجنون". للكاتب نفسه أيضًا.

- **Latham, D. (1986) From Muslim Spain to Barbary . Variorum- Reprintst.**

- من إسبانيا المسلمة إلى البربرية.

**- Manzano Moreno, E. (1991) La frontera de al-Ándalus en época de los Omeyas, CSIC, Madrid.**

حدود الأندلس فى عصر الأمويين.

**- Marqués Villanueva F. (1991) El problema morisco (desde otras Laderas) Ediciones Libertarias, Madrid.**

المشكلة الموريسكية (من وجهة نظر أخرى).

**- Meyerson, M. (1991) The Muslims of Valencia en the age of Fernando and Isabel : Between Coexistence and Crusade, Barkeley, trad al valenciano, Institute Alfonso el Magnanim. Valencia, 1999.**

مسلمو فالنسيا فى عصر فرناندو وإيسابيل، بين التعايش والحرب الصليبية، ترجم إلى اللغة الفالنسية.

**- Mollet- Gérard, D. (1984) Cretinas mozarabes el cultura islamique dan's l'Espagne de VII-IX Siècles. Etudes Augurtiniennes, Paris.**

المستعربون المسيحيون والثقافة الإسلامية فى إسبانيا من القرن السابع إلى القرن التاسع.

**- Molénal, J.P. (1977) Campagnes et monts de Tolede du XII au XVeme siecle, Casa de Velásquez Madrid.**

ريف طليطلة وجبالها من القرن الثانى عــشر إلـــى القـــرن الخامس عشر.

**- Nirenberg, D. (1996) Communities of Violence Persecution of Minorities in the Middle Ages, University Press, Princeton; Trad. al castellane, Peninsula, Barcelona, 2001, al francés. Puf. Paris 2001.**

مجتمعات العنف. اضطهاد الأقليات فى العصور الوســطى. ترجم إلى الإسبانية، والفرنسية

**- Viguera, M.J. (1981) Aragón Musulmán, Zaragoza, reed. Mira D.L., Zaragoza.**

أراغون المسلمة.

**- W.AA (2000) El Marruecos Andalusi, Museos Sin Frontera. Electa. Madrid . Trad Frances EDDIF, Casablanca 2000.**

المغرب الأندلسى، متاحف بلا حدود . ترجم إلى الفرنسية.

**- W.AA. (2000), El arte Mudéjar. La estética musulmana en el arte cristiano. Museos Sin Fronteras. Electa- Madrid- Trad, Frances . EDIFF**

الدار البيضاء الجمال الإسلامى فى فن المدجنين . ترجم إلى الفرنسية.

**- Wiegers, G.A. (1994) Islamic Litrature in Spanish and aljamiado : Yça of segoria (d.1450) he's antecedentes and cuccessorsl.**

الأدب الإسلامى بالإسبانية و الألخميادية.

## المؤلفة فى سطور

## مرثيديس غارثيا أرينال

- أستاذة بالمجلس الأعلى للبحث العلمى فى إسبانيا ، ورئيسة قسم اللغة العربية به لعدة دورات

- من أبرز المتخصصين فى الدراسات الموريسكية

- لها العديد من الكتب والمقالات المنشورة فى إسبانيا وغيرها حول العلاقة بين المغرب وإسبانيا

- أشرفت على العديد من الرسائل الجامعية المقدمة إلى جامعة مدريد المركزية .

**المترجم فى سطور**

**محمود فكرى عبد السميع**

- من مواليد منية النصر – دقهلية.

- ليسانس لغة إسبانية – كليه الألسن ١٩٦١ .

- مدير إدارة البرنامج الإسبانى بالبرامج الموجهة بإذاعة جمهورية مصر العربية (سابقًا). عمل مترجمًا بالمكتب التجارى فى السفارة المصرية بمدريد، ومركز الترجمة والمعلومات بالمملكة العربية السعودية .

- ترجم إلى العربية عددًا من القصص والمسرحيات من الأدب الإسبانى وآداب أمريكا اللاتينية ، نشرت بالصحف والدوريات المصريه والعربية .

**المراجع فى سطور**

**جمال أحمد عبد الرحمن**

– من مواليد ١٩٥٦ بقرية بنى مجد (أسيوط).

– حاصل على درجة الإجازة العليا (الليسانس) فى اللغة الإسبانية بتقدير ممتاز مع مرتبة الشرف (١٩٧٩)، كلية اللغات والترجمة، جامعة الأزهر.

– الدراسات التمهيدية للدكتوراه فى جامعتى سلمنكا ومدريد.

– حاصل على درجة الدكتوراه مع مرتبة الشرف فى جامعة مدريد المركزية (١٩٨٩).

– فى عام ٢٠٠١ رقى إلى درجة أستاذ بقسم اللغة الإسبانية بكلية اللغات والترجمة، جامعة الأزهر.

– له العديد من الكتب المترجمة والمقالات المنشورة فى مصر والخارج حول موضوعات مختلفة من الأدب الإسبانى والعلاقة بين الإسلام والثقافة الإسبانية.

التصحيح اللغوى : محمد إسماعيل

الإشراف الفنى : حسن كامل